وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
أواخر الأيام
رواية
عبد الغني ملوك

عبد الغني ملوك

أواخر الأيام

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٨ م

الحكيم ليس حكيماً،

إلا لأنه يحبُّ .

و الأحمق ليس أحمقاً إلا لأنه يزعم أنه يفهم الحبُّ .

١

انتهى العراء بعد سبعة أيام من وفاة شهناز الأرناؤوط، زوجة الحاج عبد القادر المكاثر، وقد أقام الحاج عبد القادر مجلس العزاء في الطابق الأرضي من قصره، الكائن في حي المزرعة في دمشق. هذا الطابق عبارة عن قاعة واسعة تحيط بها الغرف، أما الطابق الثاني فكان لغرف النوم والطعام والمكتب. كانت تحيط بالقصر حديقة واسعة منظمة زرعت بالمرج وأحواض الورد، وسمقت فيها أشجار الصنوبر المعمرة، والسرو الناهض، إضافة إلى بعض أشجار الأكاسيا، في حين عرش الياسمين على سور القصر الحجري، فتعطر الجو برائحة العشب الطازج والياسمين.

حضر مجلس العزاء معظم تجار سوق الحميدية، زملاء الحاج عبد القادر في المهنة، الذي يملك مركزاً مهماً في السوق، يتاجر فيه ويبيع القماش المستورد بأنواعه، وكذلك الألبسة الأوروبية الجاهزة .

حضر الأصدقاء والأقارب المجلس الحزين، كانت المرحومة شهناز عانت من مرض عضال استمر قرابة السنة، ولم يترك الحاج عبد القادر، وابنه طبيب الأطفال سليمان اختصاصياً بالأورام إلا عرض عليه شهناز لفحصها وأخذ مشورته بعلاجها، ومعظمهم كان ينظر إلى المريضة، يائساً ويقول:

(الأمل) ضعيف، وهذا الداء لا دواء له وحاول أن يعالجها في الخارج

لكن الأطباء قالوا :

(سيكون ذلك من دون نتيجة، وسيرهقها السفر من دون مردود، وكانت حالتها تتفاقم، وتزداد تأزماً، حتى إنه تمنى لها الموت لترتاح.

كان الحاج عبد القادر قد تجاوز الخمسين من عمره يوم وفاة زوجته وكانت دكانه قد اتسعت وكبرت حينما ضم إليها دكان جاره عباس الناصور الذي باعها له مكرها، وكان أيضاً تاجر البسة مستوردة، لكنه عرق في الديون الأسباب أعادها الناس إلى مغامراته النسائية التي عرف بها فى السوق... كان عباس يلتقى النسوة في دكانه تلك، وعنده غرفة داخلية مخصصة لجليل الحمراء، ولمطارحاته الغرامية. كان الحاج عبد القادر يشاهد فى تلك الفترة نساء من مختلف الأعمار، يرتدن دكان جاره منهن قصيرات وطويلات دوان عيون بنية أو سوداء، بعضهن ذوات عيون ملونة متحجبات أو من دون حجاب وأخريات بزينة صارخة لدرجة العهر، كأنهن موسسات وبعضهن من دون زينة تلوح البراءة فى ملامحين، ويمكن فترات متفاوتة ثم يخرجن في عمر الهيئة التي دخلن بها في بعض الأحيان كان الحاج عبد القادر برقبه ويحمدى وفي أحيان أخرى كان يرثي لحاله، ويتعجب من تدميره لنفسه ولسمعته وماله من أجل رغبات تافهة ويمعن التفكر فى تحليل تصرفات عباس، وفي تلمس

الأسباب التي تدعو عباساً الداعور، لجمع هذا العدد الهائل من النسوان ولا يجد له مسوغاً أو تفسيراً، فلا يمكن أن يكون ذلك بقصد الحب أو الزواج فعباس هذا لم يكن متزوجاً في ذلك التاريخ، أي منذ أكثر من عشرين عاما خلت. ولما أثقلت عباساً الديون، وضاقت حالته المادية، اضطر البيع لكأنه للحاج عبد القادر، وتوظف بعدها في مؤسسة الإسكان، لكنه لم ينقطع نهائيا عن زيارة جاره السابق الحاج عبد القادر، فكان يزوره على فترات متباعدة وأحياناً متقاربة، ويدلي إليه بأخباره، ومشاريعه ومغامراته، وقد علم الحاج عبد القادر أنه قد تزوج بعد أن أصبح موظفاً في مؤسسة الإسكان، وأحب فتاة جميلة ومثقفة، تعمل في ديوان تلك المؤسسة، فتزوجها وانقطع عن عاداته القديمة لأنها كما أخبره عباس يوماً تجمعت في شخصيتها كل نساء الأرض، وتحلى عن تلك العادة الذميمة، في جمع أكبر عدد من المعجبات المغازلتين، ثم تركهن

فيما بعد الأسباب لم يكن ليدركها الحاج عبد القادر حتى الآن. في آخر يوم من العزاء زار عباس الداعور القصر معزياً، فأجلسه الحاج عبد القادر قريه، وسأله عن أحواله، فقد كان انقطاعه وغيابه عنه، قد امتد لزمن طويل، في الفترة الأخيرة، وعلم منه أنه رزق بثلاثة أولاد، وأنه ينوي زيارة الحاج عبد القادر بعد انتهاء مراسم العزاء، الأمر مهم لم يصرح به، وقد حار الحاج عبد القادر في تفسير الأمر، وفهم المراد من لقائه هذا، وهل كانت زيارة التعزية المودة قديمة أو المصلحة طارئة ؟! ولم يجد الحاج عبد القادر أي رابط أو دليل أو قرينة يتكئ عليها في تفسير قصد عباس، فترك الأمر للأيام.

ثم إن الحاج عبد القادر دعا ابنه الدكتور سليمان وابنته قمر الزمان إلى جلسة عائلية بعد انتهاء العزاء لترتيب البيت الداخلي، وبرمجته من جديد بعد غياب الأم، فقال لهما :

- لقد تركت أمكما المرحومة شهناز أموالاً كثيرة سائلة، وتركت مصاعاً من الذهب والجواهر والألماس، وعقارات تقدر بالملايين، ولا بد من توزيع تركتها حسب الشريعة، وكل تلك الأموال قد ورثتها عن أمها وأبيها الذي كان شيخ التجار ونقيبهم، وإنني أعيد إليك يا سليمان أن تطرح موجودات التركة ووثائق التملك، المحام ليقوم بتصفية تركتها، كما أنني جمعتكما لنضع معاً برنامجاً لهذا البيت بعد غياب المرحومة، فأنا لا يمكن أن

أبقى وحدي فترة طويلة، لاسيما أنني أعاني من حزن بالغ، وكابة مثمرة، وعليكما زيارتي كل يوم أو يومين ولا يشغلنكما الزوج والولد على فإنني قد أصبت بكارثة عاطفية

ووحدانية قاتلة، بعد أن غادرت المرحومة أمكما، بل إنني في الحقيقة قد أصبت بعارض من القنوط، قبل مرضها بسنوات قليلة، وها قد عاد العارض وتفاقم، فقد كانت تدير البيت وتشرف على شؤونه، ولكن القدر خطفها منا خطفاً، وهي في عز الصباء في الأربعينات الأخيرة من عمرها. لا اعتراض على مشيئة الله .

- لم يبق من يدير شؤون البيت والمطبخ إلا الخادمة الأثيوبية (سابين) التي أمضت سنوات عندنا تساعد أمكما.

قال سليمان:

- لن نتركك وحيداً يا أبي بعد انتهائي من دوام العيادة سأزورك يومياً.

وقالت ابنته قمر الزمان:

- وأنا بدوري يا بابا بعد انتهاء دوامى فى المدرسة، فالابتدائية قريبة.

سآتي لزيارتك وأعطى التعليمات للخادمة، وأراقب تنفيذها للأعمال اليومية الروتينية، وأتذوق طعامها الذي تعده لك قبل أن أغادر إلى بيتي وأولادي.

قال الحاج عبد القادر:

سأغيب عن الدكان مدة شهر، أستعيد فيها توازني، وأرتاح من همومي...

قال ابنه الدكتور سليمان:

خذ وقتك يا أبي فالدكان في مكانها ولن تطير، وستعود إليها متى شئت.

قالت قمر الزمان

- لقد اختار القدر لوالدتي هذا المصير . والحي أبقى من الميت، فعليك

يا أبي أن تعود إلى الحياة بتفاؤل، وأنت ما زلت في شبابك.

ضحك الحاج عبد القادر وقال:

- أنا الآن في الخمسينات من عمري. فأين الشباب؟! وأين المستقبل ؟!

المهم أنك في تمام صحتك، وقد أنعم الله عليك بالمال الوفير، والذرية

الصالحة، فليعش الإنسان حياته بسعادة ويطرد الحزن والكآبة ما استطاع إلى

ذلك سبيلاً.

غادرت قمر الزمان وأخوها سليمان، وودعاه وذهبا إلى بيتيهما، وجاءت

الخادمة بكأس من الزهورات الشامية) فقال لها :

- اتركيني وشأني، ولا تعودي حتى أناديك، وغرق في بحر الذكريات. إنه الترجيع البعيد، الذي يعيد اليائس المنكوب إلى أعماق الماضي.

كان عبد القادر في الخامسة عشرة من عمره، عندما دخل دكان والده في

سوق الحميدية في دمشق، مبشراً والده بنجاحه في شهادة الدراسة المتوسطة (الكفاءة) ويومها فرح أبوه جداً لنجاحه، فأجلسه قربه، وربت على كتفه وقال :

- مبارك نجاحك يا بني ولكن عليك أن تحدد لحياتك هدفاً نهائياً في

الحياة، فما هدفك يا عبد القادر ؟

لم يدر يومها بما يجيب أباه، فهو لم يفكر في الأمر قبلاً، ولم يضع

لنفسه هدفاً، وحتى يومها لم يجد من يشجعه على ذلك، فقال:

أنا الآن في المدرسة، وهدفي النجاح.

قال والده الحاج سليمان:

- أقصد بعد أن تتخرج، وتنهي علمك، وتستقبل الحياة.

سكت عبد القادر. ثم استطرد:

- لم أفكر في هذا ...!

قال والده الحاج سليمان

ضع لحياتك - يا عبد القادر - هدفاً، فالذي لا هدف له، كالمركب

من دون قبطان.

برأيك يا أبي ما الهدف الذي يجب أن أضعه لحياتي؟

أن يكون هدفك الحصول على الفانوس السحري، أو العجل الذهبي.

ظن عبد القادر للوهلة الأولى أن أباه يستهزئ به أو على الأقل

يمازحه. فقال:

- الفانوس السحري، قصة خيالية للأطفال، وأنا الآن قد أصبحت شاباً، يتلمس الواقع، وأنا لم أسمع بالعجل الذهبي من قبل.

المال هو الفانوس السحري الحقيقي، فيه تستطيع تحقيق كل شيء؛ كل شيء على الإطلاق، أتفهم ما أعني؟ العجل الذهبي إله بني إسرائيل، الذي

يديرون به العالم من المحفل.

- يقول لي المعلم في المدرسة: إن المال ليس كل شيء في الحياة.

كلا، هو كل شيء، إنه سلطان داود غير المحدود، وعصا موسى السحرية، إنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، اجعل جمع المال هدفك اجمعه ونمه ولا تصرف منه إلا النذر اليسير، فقد قال الحكماء :

- العبرة في جمع المال قلة الصرف، لا بكثرة المردود، وأنه ما اجتمع مال إلا من شح أو حرام ... اقتصد لدرجة الشح.

-ولكن جمع المال الحرام منهي عنه.

- تهريك من ضرائب الدولة ليس حراماً، واحتيالك على جمعه ليس حراماً السرقة حرام، أنا لا أقول لك اسرق والتجارة بالمخدرات حرام، وأنا لا أقول لك تاجر بالمخدرات، أقول لك اجمع المال بمكر وذكاء واحتيال، ولا مانع من ارتكاب بعض المخالفات، بعدها تحج وتعود نظيفاً كما ولدتك أمك.

يتابع ذكرياته عن أقوال والده:

الدولة تجمع منا المال، وتنفقه على المؤتمرات وبعدها الولائم وتشتري السيارات الفارهة لأصحاب المناصب، وبذخ السفارات معروف من دون حساب، وتتجول في الشوارع فتصادف جيوش العاطلين عن العمل، فلماذا الضرائب لا تجمع وتؤخذ إلا لذاك؟ أما المتسولون فحدث ولا حرج، الضرائب في البلاد المتقدمة تعود على المواطن بالضمان الصحي والاجتماعي، وتأمين فرص العمل، وزيادة مشاريع الاستثمار، أما عندنا فلا لذلك فرقتك لسارقك إرجاع لمالك. هذا ليس سرقة، وليكن عندك دفتران للمبيعات: الأول حقيقي تخفيه في البيت، والثاني وهمي تضعه في الدكان ليشاهده مأمور الضرائب، سجل فيه عشر

مبيعاتك، واتفق مع المخلص الجمركي ليعطيك (مانوفست) مزوراً، أقل من الاستيراد الحقيقي بعشر المستجر ، لتبرزه المأمور الضرائب، كريه الوجه).

قال عبد القادر يومها وقد استغرب كلام أبيه

- لكنهم يقولون إن المال وسيلة وليس غاية، فهل هذا صحيح ؟!

لا ليس صحيحاً لأنه عندما تحمل الوسيلة الغاية مضمرة في جوهرها

تصبح الوسيلة بحكم الغاية أي تنصهر فيها.

أجاب الابن يومها :

لكنك لن تحصل على المنصب بالمال.

أخطأت يا بني، معظم المناصب تشترى بالمال.

ولكن الخبرات الفنية والحكمة والعقل الراجح ... لا تشترى!

- بالمال تستطيع أيضاً أن تكسب الخبرات وتتعلم، كل ما في الأمر أن

ذلك يتطلب وقتاً ... اشتر خبيراً ريثما تتقن خبرة ما.

تعجب عبد القادر من قدرة أبيه على الإقناع، ولام نفسه؛ لماذا لم يفكر

في ذلك من قبل، فقال لأبيه:

- أظن أنك بهذه الأفكار جمعت كثيراً من المال.

- نعم جمعت لك الكثير، فأنت وريثي الوحيد. أتعلم لماذا لم أنجب العديد من الأولاد مع أني وأمك باستطاعتنا ذلك ؟! لأن في كثرة الأولاد توزيع للثروة

وضياع لها، وأنا أردت أن أمركز الثروة في يديك لتبقى الأقوى.

- وماذا تريدني أن أعمل لكسب عيشي وكنز مالي.

تعمل في هذا الدكان وتبيع الأقمشة المستوردة، ليس من داع للجامعة الثانوية نهاية المطاف، بعدها سنتعلم أصول تجارة الأقمشة واستيراد الألبسة وبعد الظهر - من الآن - تداوم في المحل، وتنتبه للبيع والشراء، سأعلمك

أساليب المكر في البيع.

قال لنفسه وقد عاد من الذكرى لكن المال لم يشف زوجتي، كما بشر

أبي وهأنذا رغم المال أفقد زوجتي، كم كنت مخدوعاً بالمال لا تستطيع شراء الحب، وأنا لم أعرف طعم الحب في حياتي كلها خمسون عاماً مرت في جمع المال، وعبادة العجل الذهبي من البيت إلى الدكان ومن الدكان إلى البيت كتور مربوط إلى ترعة، يدور في حلقة مفرغة مغمض العينين، وشهناز التي اختارها أبي لي لمالها ونسبها، لم تمنحني حباً، وأنا بدوري لم أنسج معها

عاطفة، وللحقيقة كانت امرأة محترمة، ولكن الحب مفقود، وكان الرابط وظيفياً أو المصلحة، ولم يكن عاطفياً، ولقد مثلت الجنس منذ السنة الأولى، وعوضني الولد بعاطفة الأبوة، فاكتفيت بذاك).

كان زواج عبد القادر تقليدياً، وقد هندس له أبوه حياته، فوضعه في

شريقة وقال له :

- عليك بالزوجة التي ترفعك، ولا يخدعنك الجمال، فعندما تطفأ الأنوار تتساوى النساء. إن شهناز بنت الحاج إسماعيل الأرناؤوط ذات أصل ومك وستؤول إليها ثروة لا تعد، فأبوها كبير تجار الحريقة والحميدية.

يومها قال عبد القادر :

- أليس من الأفضل أن أتزوج من فتاة أحبها ؟!

- تزوجها ثم أحببها كما تريد، الحب الحقيقي يأتي بعد الزواج.

ولكن الحاج عبد القادر لم يستطع أن يحب شهناز الصبية، بل سكن

إليها، ثم استكان مرغماً.

كان يحسد عباساً الداعور، كلما لمح صبية تخطر إلى محله بدلال وغنج، تصافحه ضاحكة، وتدخل القسم الداخلي، وتتوارى فيقول عبد القادر في سره عنزة تضحك في مسلخ أيام وينتهي أمرها لتفسح دوراً لغيرها، كيف يستطيع عباس حشد النساء في دكانه، ثم يترك كل واحدة في حينها، حين يحل أجل تركها، هل كان يتمتع بهن ؟! وبماذا كان يعدهن ؟! على كل حال دفع

الثمن، وباع دكانه، وصار عبداً للوظيفة.

لما بلغ الحاج عبد القادر الخامسة والأربعين، وقبل أن تمرض زوجته ألم به عارض ظنه مرضاً خطراً، فقد كره الدكان وتجارة الأقمشة والألبسة وأحس بضيق نفس واختناق، وتكررت الحالة، فذهب إلى طبيب الداخلية والقلبية، فأكد له بعد الفحص والتحليل والتصوير أنه سليم الجسد، ونصحه بزيارة العيادة النفسية، في بادئ الأمر تردد... وإزاء اشتداد الحالة وتفاقمها، وعدم الرغبة في الحياة، الذي وصل درجة تمني الموت قرر زيارة الطبيب النفسي

(حسان الملالي) أشهر طبيب نفسي في العاصمة شرح له حالته، وكيف كره الحياة، وأنه مرة فكر في الانتحار من الملل القاتل برغم أنه تاجر ثري، ويسكن في قصر، وعنده سيارة حديثة وأسرة طيبة، فأمره الطبيب بالاستلقاء على سرير الفحص، وأمره بأن يسرد قصة حياته من بدايتها حتى لحظة دخوله العيادة.

وبدأت آلة التسجيل عملها ....

بعد ساعتين جلس الطبيب وراء طاولته، والحاج عبد القادر أمامه

على الكرسي.

قال الطبيب:

مشكلتك أنك لم تقدم شيئاً لحياتك - شيئاً ذا بال - أو المجتمعك خدمة يذكرها الناس. لم تقدم شيئاً من صنعك، إنك تحتاج إلى إنجاز، لقد برمجت كالة الجمع المال، وهذا ذنب أبيك.

يمكن أن أسميك الرجل الصندوق) ولهذا فقدت في اللاشعور احترامك لنفسك، كونك صنيعة الآخرين، كما أنك لا تعرف معنى الحب، وكان زواجك تقليدياً وتحول صخرياً بارداً، خلق عندك كبتاً من نوع خاص، برغم أنك متزوج كنت تشكو من كبت جنسي، ومن فقر روحي خطر، وعليك أن تشحن نفسك بالحب، أي نوع من الحب حتى لو كان حباً صوفياً، كما عليك أن تختار للحياتك هدفاً حقيقياً غير جمع المال، هدفاً له علاقة بحياة الناس ومنافعهم، إنجازاً يسرهم ويتعلق بحياتهم، قدم لهم المساعدة تحصل على السعادة.

قال للطبيب:

- أبحث عن الحب وأنا في الخامسة والأربعين؟!

- نعم لأنك لم تعرفه في العشرين، ولذلك أصبحت روحك في خواء، نحن

في حاجة إلى الحب في مراحل حياتنا كافة عندما تذكر كلمة الحب في مجتمعنا، تأتي صورة السرير، ونحلم بالغريزة الحب غير ذلك، برغم أنه عند اكتماله بين رجل وامرأة، يصبح الجنس جزءاً متمماً للحب، ابحث عن أي نوع من الحب،

ولو كان حبا رومانسيا، أو عشقاً الهيا، كما لو أنك عابد متصوف المهم أن

تخرج من حظيرة العجل الذهبي الخائفة.

عندما خرج من العيادة، أدرك بندم كيف فرط في حق نفسه وكيف

أخره والده، بتقديسه المال، فقال مخاطباً ذاته :

الن أفعل ما فعل عباس ولا يليق بي مثل هذا السلوك فى مثل هذه السن ولكن منبع الحب ومنبع الروح، زوايا الصوفية، وهل هناك أسمى من تلك الحب ؟). يمم وجهه باتجاه قبر الصوفي محي الدين ابن عربي، فهو يعرف أن

هناك راوية للمتصوفين، الذين يلوذون بالقبر، ويقرؤون قصائد الشيخ على باب الزاوية، شاهد شيخاً عجوزاً في السبعين من عمره، فسلم عليه، وقال: انا عبد القادر المكاثر، جئت طالباً العشق الإلهي، فأجابه العجوز،

الذي عرف فيما بعد أنه يكنى بأبي العتاهية.

- الهاكم التكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)

- لكنني الآن أبحث عن شحن الروح، فروحي خاوية.

من لا يركض إلى فتنة العشق، يمشي طريقاً لا شيء حي فيه.

أنا ظامئ... علمني كلمات العشق.

اعلم أن العشق صامت تماماً، وأنه لا توجد كلمات يمكنها وصفه.

أوضح وفتر، لا أفقه شيئاً، ساعدني.

- كل الأشياء تصبح أوضح حين تفسر، غير أن العشق الذي تبحث

عنه، يكون أوضح حين لا تكون له أي تفسيرات.

- ماذا على أن أعمل؟

- ألق نفسك في نهر العشق، ولو كان نهراً من الدماء.

ابني أفتقد شحنات الروح، وأحوم كفراشة حول النور، فمن يشحن روحي؟

- إن تكن تبحث عن مسكن الروح فأنت الروح، وإن كنت تفتش عن قطعة خبز فأنت الخبز، وإن استطعت فهم ما أعنى فسوف تفهم أن كل ما

تبحث عنه هو أنت!

- لم أرق إلى علياتك الغامضة ... وداعاً.

الوداع لا يقع إلا لمن يعشق بعينيه، أما الذي يحب بروحه وقلبه، فلا ثمة انفصال أبداً.

- لم أفهم شيئاً !

- إذا أردت الفهم فاترك كل شيء واتبعنا هنالك تجد الروح المتألقة ببهاء النور

قطعت تداعيات أفكار الحاج عبد القادر طرقات على الباب، كانت الخادمة (سابين) تستأذن الدخول لتقول للحاج عبد القادر :

على باب القصر عباس الداعور يريد زيارتك، لقد اتصل بهاتفك الخلوي فلم ترد.

نظر إلى شاشة الهاتف فوجد عدة مكالمات لم يرد عليها، لقد كان الهاتف على وضعية الصمت، قال للخادمة: أدخليه.

ادخلت الخادمة عباساً الداعور، غرفة الحاج عبد القادر، فاستك وصافحه بحرارة، فانكب عليه عباس الداعور معانقاً، ثم أجلسه على كرسي

وجلس أمامه، وبينهما طاولة صغيرة وقال:

- أهلاً بعباس، صديق الصبا، وجار الرضا.

تهلل وجه عباس وأشرق بابتسامة، ثم قال :

- في الحقيقة حاولت الاتصال بك منذ زمن، ولما علمت بمرض المرحومة -وانشغالك أجلت اللقاء.

- كانت أياماً مؤلمة، وقد رضينا بقضاء الله وقدره.

- لا راد لقضائه، وفي النهاية الجميع يلقون وجه بارنهم.

- خير، هل كنت تريد مني شيئاً، أو كنت تريد أن تخبرني بشيء.

- بصراحة، كنت أريد منك أن تساعدني بإيجاد عمل إضافي أمارسه في فترة ما بعد الدوام أي بعد الثالثة، وكنت وما زلت أحبذ العمل موظفاً في محل تجارة القماش، وبيع الألبسة، لأنني كما تعلم أملك خبرة في مثل هذا العمل.

الأسرة كبرت والراتب محدود ولا بد أن نحتال على الظروف.

- ألا تجد غضاضة بالعمل في متجر بعد أن كنت رب عمل وتملك متجراً ؟!

الحاجة مذلة، والإنسان ابن ظروفه والعمل مهما كان ليس عياً. فالدهر دوار والزمن لا يؤمن جانبه، وكما ترى يا حاج عبد القادر الزمن قلب لي ظهر المجن.

- لا أخفي عنك، فأنا أحتاج حالياً موظفاً خبيراً، يدير لي شؤون الدكان، ولكن كما تعلم، أنا لا أستطيع أن أوظف أياً كان في دكاني، وأنت في الحقيقة أهل للثقة، ولكن المشكلة تكمن في أنك موظف، وأحتاج موظفاً بدوام كامل، من الصباح حتى المساء، فأنا أنوي أن اعتكف في بيتي هذا شهراً كاملاً، أعيد فيه ترتيب حياتي وبرمجتها بطريقة مختلفة، ولا بد لي من الانقطاع والتفكير لبرمجة حياتي الجديدة.

ليس في الأمر مشكلة، باستطاعتي أن أطلب إجازة لمدة شهر، وأداوم في دكانك دواماً كاملاً، حتى ترتب أمورك، وتستعيد قدراتك، وتعود لمركزك، وإذا شئت بعد ذلك أداوم فترة ما بعد الظهيرة، حتى حلول الليل بدلاً عنك أو معك فأساعدك.

- فكرة ممتازة، ويمكن تنفيذها من الآن إن استطعت الحصول على إجازتك فوراً.

- استطيع ذلك بكل سهولة.

- لا بأس في ذلك، وعلى الطاولة في الدكان دفتر فيه موجودات البضاعة ولا داعي لحضوري معك، فقم بعملية الجرد، وسجل المبيعات في دفتر البيع ولا تبع أحداً بالدين أو بالتقسيط، وهذا مفتاح الدكان.

أعطى الحاج عبد القادر عباساً مفتاح دكانه تم الاتفاق بسرعة بين الاثنين، لأن عباساً كان في حاجة ماسة للوظيفة، وبدوره كان الحاج عبد القادر في حاجة أيضاً إلى فترة نقاهة إن صح التعبير، أو لنقل لإعادة مراجعة ونقد المرحلة الماضية، لا سيما أنه قد مر بفترة خمول، قبل وفي أثناء مرض زوجه كره فيها البيع والشراء وكره المال، وكره الدكان أيضاً، حتى إنه كان قد فكر يوماً بإغلاقه،

والانقطاع في تكية المتصوفين، عند قبر الشيخ محيي الدين ابن عربي لكنه لقي استقبالاً غامضاً وأفكاراً لم يستطع فك الغازها، وهو بهذا الاتفاق مع عباس يكون قد احتفظ بسفته واحتفظ أيضاً بزبائنه، وظل محله مفتوحاً،

بانتظار الحياة الجديدة التي سيقدم عليها مغيراً نظرته إلى ماضيه، بل إلى حياته كلها .

اما عباس فقد سر سروراً عظيماً حيث أنجز في وقت قصير، وكلمات قليلة وصعوبات لا تكاد تذكر هدفه الذى جاء من أجله، وهو العثور على عمل إضافي يسند الراتب، ووجد مجالاً حيوياً لأهداف بيتها فى نفسه يلوي تحقيقها.

ثم سأله الحاج عبد القادر :

انست نادماً يا عباس على ما فرطت من حياتك، وعلى بيعك دكانك.

- قد لا تصدقني يا حاج عبد القادر، فإنني لست نادماً على شيء مما ذكرت، فبخروجي من الدكان، ودخولي حظيرة الوظيفة حصلت على زوجة نادرة المثال، اقتنعت بها أيما اقتناع، جميلة ومثقفة، والأهم من كل ذلك أنني احببتها واقتنعت بها، وهي كذلك تحبني، وفي الحقيقة أيضاً، إن هذا الكسب أثمن من الدكان، بل ومن كل مال، ولولا بيع الدكان لما كنت عثرت عليها، ومن جهة أخرى فإن تجاربي الماجلة، وعلاقاتي تلك، قد أكسبتني نوعاً من الخبرة، قد لا تتوافر لغيري، لقد علمتني قراءة الكتب، وطرائق التفكير.

قال الحاج عبد القادر مستغرباً:

- خبرة ؟! وأي خبرة يمكن أن تتأتى من أعمال ماجنة؟

تلك كانت مرحلة، لا بد منها لترميم شروخ نفسية، رزاتني بها الخطوب، وأوقعتني بها الظروف، لا أريد أن أستفيض فيها فذكرها يؤلمني، كانت تلك الفترة بمنزلة علاج نفسي الحالي.

- كيف يكون ذلك؟ وهل يمكن أن يتداوى الإنسان، عندما يكون

زير نساء؟

- لا أريد أن أستفيض بهذا الموضوع، كما قلت، وقد مضى عليه ردح طويل من الزمن، هو جرح قديم انتمل، ولكنني أقول لك: إنني مررت بتجربة حب عنيف مزلزل، خانتني في نهايته امرأة أحببتها بكامل كياني وجوارحي

فاختارت أحط الناس خلقاً، وأقلهم مردوداً وعلماً وخانتني، ولا أدري إلى الآن لم فعلت ذلك، برغم أنه في نهاية المطاف، رماها للكلاب، وربما أكون أنا بتصرفاتي الماجنة تلك، ولقاءاتي العديد من الفتيات والنساء، كنت أنتقم لذاتي منها، وأداوي جروحي المشروخة، وعلى كل كما قلت لك، إن أي عمل مهما كان تافهاً يمكن أن يغني ويثري شخصية الإنسان، وإنني الآن من نظرة واحدة أعرف ما يدور في عقل الأنثى، وأفهم شخصيتها ومزاجها، وهذه أقل خبرة حصلت عليها).

- كيف ذلك ؟

- مثلاً إن خادمتك - يا حاج عبد القادر - عاشقة، وربما تدخل إنساناً إلى دارتك ليلاً، فيتطارحان الغرام، وأنت في عز النوم. المياه تجري من تحتك وأنت لا تدري بما يجري.

- كيف استنتجت أن الخادمة عاشقة؟

إن هذه الأشياء تحس ولا يبرهن عليها بوقائع، ربما تدخل في باب الحدس أو التنبؤ، لكنه تنبؤ أكيد على كل حال، إنه نوع من فراسة الخبير.

- لقد شوقتني، بدرجة كبيرة، كي أتعلم منك هذه المهارة، فأعطني بعض

رؤوس الأفلام.

- الخادمة التي فتحت لي الباب سعيدة، متألقة، مزهرة، يشع السرور من عينيها، والشهوة المرتوية من جسدها، وهذا لا يدركه إلا من خبر النساء. إنها تحب وتمارس الحب، ولا يمكن - يا حاج عبد القادر - أن تتعلم هذا إلا إذا مارسته بنفسك.

- لم الحظ في حياتي ما تصف، ولم أمارس ما مارست انت، لأني لم أعرف الحب في حياتي مطلقاً، وقد تستغرب ذلك، كنت أحترم زوجتي، وأقدر أهلها، ولكن الحب الذي تصفه، لم يمر بي، ولم أبحث عنه، ومؤخراً أصبح وصفة طبيب ... ربما كانت هذه الخادمة بالنسبة لي مجرد شيء يتحرك ويؤدي خدمة، مثل أي آلة في المطبخ، أنا لا أنتبه عادة المشاعر الإنسان، أو بواعثه

أو تعبيراته، ولا استطيع تفسير قلقه أو سروره. لقد تثبتت حياتي - بفضل أبي عند الجمع والكنز، وأنا أقيم الأمور - بصراحة - بمقياس المال والأرقام، كما أنني منزعج من خواء روحي لاقتصار اهتمامي فيما مضى على البيع والشراء وجمع المال، فلم ألتفت إلى مباهج الحياة. لقد قال لي الطبيب النفسي:

- (إنك تحتاج إلى عمل إنساني، يعيد لك احترامك لنفسك، وللتواصل مع حياة الناس ومساعدتهم، وفي حاجة أكبر إلى الحب؛ أي نوع من الحب الحقيقي، ولو كان حباً لا علاقة له بالجنس). يومها حاولت التصوف فلم أفلح. إنني الآن أبحث عما ينقصني. وخلوتي هذه التي ستستغرق شهراً، ساعيد بها النماء إلى روحي وتلبية متطلبات نفسي.

سنتناقش في كل هذه الأمور يا حاج في دكانك بعد شهر، وتكون خلونك قد انتهت، وأفكارك قد وصلت إلى غايتها، وستجد عندي معلومات عن تجارب في الحب لا تقدر بثمن.

ثم أردف عباس، بكلام حاسم مغيراً الموضوع بأكمله، سائلاً الحاج عبد القادر :

على فكرة هل عندك مخلص جمركي، من أجل المستوردات؟

- تركني عبود الجاسم، لأنني لم أزد له (الجعالة) والراتب؛ ابحث لي عن مخلص أفضل، وبسعر أرخص.

ضحك عباس وقال:

- أعرف مخلصة جمركية، اسمها نور الصباح، نالت الماجستير في الاقتصاد، وأدت دورات في التخليص الجمركي، وعندها خبرة عملية في هذا المجال، وتقنع بالراتب القليل.

- هل نور الصباح هذه قد الحمل) وتستطيع تخليص البضائع بكفاءة

وسرعة؟

أكثر من عبود الجاسم، الذي لا يحمل إلا الشهادة المتوسطة.

لعلها إحدى الصديقات اللاتي كن يرتدن دكانك القديم؟

- لا ليست كذلك، إنها الآن بالكاد تبلغ الخامسة والعشرين، وفي تلك

الأيام كانت صغيرة جداً فكيف كان لي أن أدخلها دكاني؟

عندما خرج عباس، كان قد نثر بذور الشك في أعماق الحاج عبد القادر تجاه خادمته، وقد استرعى انتباهه، أن الخادمة عندما دخلت لتحمل صينية القهوة والفناجين إلى المطبخ كانت تضع على وجهها زينة خفيفة، غطت العيون والشفاء، وقمتي الخدين بغلالة رقيقة جميلة.

فاجأها بسؤال:

- هل أنت مغادرة؟

- نعم سأعطي القمصان والسراويل إلى الكواء، وأعود بسرعة. هل تحتاج

خدمة قبل ذهابي يا سيدي؟

- لا، ولكن لا تتأخري.

راقبها من النافذة المطلة على مركز التنظيف، كان صبي الكواء

ويدعى حسن الدسوقي - يقف على باب الدكان بانتظارها، وقد انفرجت أساريره

وابتسم عندما ناولته الثياب، صافحها بحرارة وأمسك يدها ودخلا المحل.

مضى من الوقت عشر دقائق، وهما في الداخل، لم يكن صاحب المصبغة موجوداً، وإلا ما كان لحسن أن يقف على الباب منتظراً ومرحباً، مكنت وقتاً لا بأس به، ثم خرجت مشبعة بنظرات حسن وابتساماته خرجت بغير الهيئة التي دخلت بها، إضافة إلى الارتباك، كان انفعال من الفرح يظهر على كيانها كله، ويلاحظ عن بعد، أو هكذا خيل للحاج عبد القادر، واعترته غيرة غير مسوغة، أشبه بغيرة الجائع وحقده عندما يجد الأكلين في المطاعم وهم يزدردون اللحم الشهي، وهو لا يملك في جيبه نقوداً تكفي لشراء لفافة من الجبن أو الحلاوة.

أمن المحتمل أن يكون حسن هو الحبيب الذى عناء عباس الداعور في إشارته إلى أن الخادمة عاشقة ومرتوبة عاد إلى مجلسه، فسمع طرقات استئذان

على باب غرفته. ثم دخلت قائلة:

- أوصلت الأغراض إلى الكواء، هل تريد شيئاً من العصير يا سيدي؟

كانت نية الحاج عبد القادر ضبطها متلبسة، ولم يرد لفت انتباهها إلى أنه يراقبها، أو يتشدد في خروجها، لكنه لاحظ ثوبها المدعوك وتشعث شعرها،

فقال:

- كأس من عصير البرتقال من فضلك.

في تداعياته المرة للحاضر والماضي قال في نفسه

الناس من حولي يمارسون الحياة، وأنا لاء وغافل عن جوهرها، لا شك أني فرطت في حياتي، وكنت مثل أهل الكهف، ولكنني أتحرك مفتح العينين

وفي الحقيقة أنا نائم ... انتبهت لنفسي عند الأقول، وماذا يفيد الندم؟).

أيام عديدة مضت، والخادمة تحت المراقبة، ليس من نتائج تذكر، وجاءه هاتف من عباس، يخبره أن العمل في محله قائم ومزدهر، وأن البيع في ازدياد، وقد وظف عباس نور الصباح الماوردي مخلصة جمركية، وأن طلبية من القماش الإيطالي والألبسة قد وصلت، وتقوم هي بإجراءات التخليص، وأن

الجرد مطابق.

لم ينتبه الحاج عبد القادر، لكل هذه التفاصيل، ولم يرتح أو يفرح بوصول البضاعة الإيطالية، أو بوجود موظفة جديدة في دكانه، بل كان يدور في ذهنه

سؤال واحد بحيره فسأل عباساً :

- قلت لي في أثناء زيارتك إن الخادمة لعوب، وتمارس الحب والعشق في داري، ومن وراء ظهري، لكنني راقبتها أياماً، ولم ألحظ عليها شيئاً !

هل راقبتها الليل بطوله؟

- كنت أراقبها في النهار .

جاءت ضحكة عباس من خلال الهاتف هازئة.

ربما تلتقي مع عشيقها ليلاً، وتكون أنت في سريرك غافلاً أو غافياً.

أغلق الهاتف بعد أن شكره، وأوصاه بالانتباه للعمل، ومراقبة الموظفة

الجديدة، وموافاته بالتفاصيل.

تلك الليلة لم يتم الحاج عبد القادر، فعند الساعة الحادية عشرة ليلاً، خرجت الخادمة من غرفته، بعد أن وضعت كأساً من البابونج على منضدته

قرب السرير ثم قالت:

- هل تريد شيئاً يا سيدي؟

لا شكراً، اذهبي ونامي.

- تصبح على خير (يا بك!)

لم يشرب البابونج، وانتظر بقلق حتى الواحدة بعد منتصف الليل، انزلق من سريره ونزل متسللاً نحو الدور الأول، فأصبحت غرفة الخادمة في الحديقة على مرمى بصره، كان نور خافت ينبعث من غرفتها، ولا صوت ولا حركة الجو صاف وهادئ لا يقطعه إلا صرير جندب، أو صرصرة أخطب، ثم فجأة فتحت باب غرفتها وخرجت باتجاه باب القصر، وهي ترتدي روب ديشامبر) يغطي جسدها، ألقت نظرة على الطابق العلوي، كان الحاج عبد القادر، قد أطفأ كل الأنوار، وجلس في الظلام كاملاً يترقب.

فتحت باب الدارة، ودخل شاب يتسلل كلص مسرعاً باتجاه غرفتها،

فلحقته بعد أن أغلقت بهدوء باب الدارة.

لم يصدق الحاج عبد القادر عينيه، لكنه ازداد إصراراً في المضي بكشف القصة بأكملها، تصرف بهدوء، وضبط أعصابه كانا قد دخلا الغرفة، وأغلقا الباب، لكن ضوءاً خافتاً ما ما زال يشع من شبابيكها، التي أسدلت عليها الستائر مشى الحاج عبد القادر متسللاً، ومتستراً بظلمة الليل، واحتمى بسور الحديقة المغطى بشجيرات الياسمين، واتجه نحو غرفة الخادمة حتى التصق بجدرانها، وسمع أصوات همس لم يميزها، فحاول العثور على فتحة في النوافذ لم تغطها

السجف والستائر بشكل كامل صعق عندما عثر على تلك الفتحة، فبان له من خلالها جسدان يتقلبان على فراش رث وشاهد لأول مرة جسدها الأسر عارياً تماماً، وجد حسن الدسوقى الأبيض المهاجم للجسدها بإصرار وافتراس وهما يتلويان ويتقلبان على الفراش، وسمع تاوهات اختلطت بازيز (نوابض) السرير المعدني المتهرئة، فأثار كل ذلك أعصابه فلم يتمالك نفسه، فانقض على مقبض باب الغرفة يريد فتحه، لكنه كان مغلقاً إغلاقاً كاملاً، ومرتعاً بشكل محكم.

صاح بصوت عال متوتر !

- (سابين) افتحي الباب بسرعة، وإلا خلعته أو أتيت بالشرطة.

صاحت من خلف الباب

- ماذا تريد يا سيدي؟ إنني أستحم في الغرفة، وأنا عارية، سأخرج بعد قليل إلى غرفتك، لأرى ماذا تريد؟

- تتحممين في غرفتك في مثل هذه الساعة إنك تكذبين، يوجد معك

شخص تمارسين معه العهر !

أسقط في يدها، وخافت في حين وضع حسن خطة للهرب، فارتدت (الديشامبر) وحبكته، وليس حسن ثيابه على عجل عندما فتحت الباب، هرب حسن كقطة مذعورة، متسلقاً سور القصر، ولم يشأ الحاج عبد القادر متابعته لأنه خشي أن يكون مسلحاً بمطواة أو سكين، فتركه يذهب، لكنه قال للخادمة:

أتدخلين الرجال إلى بيتي يا عاهرة، وتمارسين معهم الجنس؟!

- لا يا سيدي... هذا حسن صبي الكواء، جاء ليقول لي: إن الأنسة

جاهزة، ودعاني لتسلمها.

- اتكذبين وتتعللين بأعذار واهية الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل، أفي مثل هذا الوقت يسلم الكواء زبائنه أغراضهم؟ البسي واصعدي إلى غرفتي سيكون حسابك عسيراً.

عاد الحاج عبد القادر إلى غرفته في الدور العلوي منزعجاً من وقاحة خادمته ومجازفتها، ومتعجباً في الوقت نفسه من فراسة عباس الداعور، وراثياً

لنفسه بلاهتها وغباءها.

ثم قال في نفسه:

) أكل هذه المخاطرة من أجل الحب ؟! وماذا يكون الحب، يا ترى، حتى

يودي بصاحبه إلى ما يودي إليه ؟!)

عندما صعدت الخادمة إلى غرفته، خائفة ذليلة منكسرة، انقلب الحاج

عبد القادر إلى محقق شرس

- منذ متى يزورك حسن في الليل؟

هذه هي المرة الأولى.

- أنت تكذبين وإذا لم تقولي الحقيقة فساعنفك بشكل قاس جداً.

- منذ أكثر من سنة.

كانت المرحومة تحتضر ، وأنت تدخلين الغرباء إلى بيتي

أنا لم أضر أحداً بتصرفي هذا !

- يا للوقاحة اجمعي حوائجك، أنت مطرودة.

اين أذهب في هذا الليل؟! أمهلني إلى الصباح فقط!

- سيأتي ابني غداً، ويسلمك للسفارة.

خرجت من عنده، ولم يغمض له جفن في تلك الليلة

في الصباح، اتصل بابته سليمان وأخبره بما جرى في تلك الليلة، ولما حضر سليمان إلى القصر، وجد أباه في حالة لا يحسد عليها، فهدأ من روعه واستدعى الخادمة، وأعطاها استحقاقها، وأوصلها إلى سفارتها، وغادرت.

ذهب سليمان إلى الكواء، فرحب به صاحب المصبغة، وسأله سليمان عن

صبيه حسن فقال:

- إنه لم يأت اليوم، ولا يعرف الأسباب، فأخبره الدكتور سليمان بما جرى ليلة أمس في دارته فغضب صاحب المصبغة، ووعد بطرد حسن إذا عاد أفهمه سليمان أنه سيشتكى عليه إلى النيابة، ولكن صاحب المصبغة اقنعه بعدم ضرورة ذلك، لما فيه من تشهير بالجميع، وكذلك القضاء على مستقبل حسن، وهو غر ومراهق، والغلط الأكبر يقع على الخادمة التي أدخلته القصر، اقتنع سليمان بذلك، ووعده أن ينهي القصة عند هذا الحد، وأنه سيقنع أباه بذلك.

لما عاد سليمان إلى أبيه وأخبره بما حصل، استحسن الحاج عبد القادر تصرفه المناسب، وقال علينا إيجاد البديل، ولكن لن تكون هذه المرة خادمة أجنبية، بل مربية أو بالأصح، مدبرة منزل وطباخة من أهل البلد.

أعلن سليمان في اليوم التالي، عبر صحيفة الأعمال والتوظيف، أنه مطلوب امرأة لا تتجاوز الأربعين تجيد الطهو، ومدبرة منزل، والراتب مجز، ويحدد بعد المقابلة، ووضع في أسفل الإعلان رقم هاتف الحاج عبد القادر، لتحديد موعد المقابلة ومكانها.

٣

منذ ظهر إعلان طلب الوظيفة في الجريدة بدأ هاتف الحاج عبد القادر برن بلا هوادة، كان يعطي المواعيد، وينتظر الحضور، بضع نساء أو يزدن طلين العمل، وكان الحاج عبد القادر يقابلهن في المقصورة.

أعجب الحاج عبد القادر بعمله الطارئ الفريد هذا، ولأول مرة تدخل فرحة، لا عهد له بها، إلى قلبه فيزداد سروراً وغبطة، بعض المتقدمات متزوجات، بعضهن أرامل، وبعضهن عوانس فقيرات. تعجب الحاج عبد القادر من الفقر الأسود الذي يلف أبناء المدينة، أو بعضهم على الأقل، لم يخطر له فيما مضى ما يعاني الناس من المرارات والإخفاقات والظلم المبين. أدرك أن كل ما تصدق به في حياته على الفقراء، لم يكن إلا بنسبة الحصاة للجبل، مع أنه يملك أموالاً طائلة، يمكن بها أن يفرح نفوساً مخنوقة، وحالات ضيقة لو جاد بماله لأنقذها أو خفف عنها.

من المتقدمات للوظيفة، أعجبته سميرة درويش، امرأة في الثلاثينات من عمرها، ذات رقة وجمال، سحب الفقر والهم رونقهما، فغدا وجهها أبيض مصفراً حزيناً، يدعو للشفقة أكثر مما يدعو إلى الإعجاب. سألها عن حالتها الاجتماعية فقالت إنها مطلقة سجين محكوم بالمؤبد، وليس لها أولاد، تسكن مع أختها في غرفتين بملحق على السطوح، في حارة العشوائيات لها خبرة في خدمة البيوت ومجالسة المرضى، ومن في دور النقاهة، والعناية بالأطفال، إضافة إلى الطبخ والغسل والكي، وترتيب الأثاث وتنظيفه.٢٩

اختارها من بين كثيرات، وأوعز لها أن تداوم في صباح الغد. في أول يوم للدوام استقبلها في غرفته بالدور الثاني من الدار، وأعطاها توجيهاته وتعليماته، متصنعاً الجدية والحزم.

- الدوام من الثامنة صباحاً، وحتى الثامنة مساء، وعليك تسوق الخضار والفاكهة واللحم، حسب قائمة تعد من المساء، ثم هناك الطبخ والغسل وكي الملابس وانتظار التعليمات في حينها.

- سبق أن مارست مثل هذه الأعمال عند العديد من الأسر.

أبرم معها عقد عمل شفهياً، لمدة شهر وقال:

على قدر نشاطك يحدد الراتب، وبعد الشهر يمكن التجديد أو الفسخ.

كانت مذعنة مطيعة منكسرة تأملها الحاج عبد القادر بعينين فاحصتين، هي امرأة ناضجة أكثر مما يجب، ولكن الصبا لم يسحب كل ذيوله منها، وما زالت مسحة من الجمال على قسماتها، وبعض التجاعيد التي تكاد تظهر تحت العينين، لو كانت غنية للفتت الأنظار، قاتل الله الفقر !

كانت تلبس معطفاً يخفي أسمالها الداخلية، وتضع على رأسها حجاباً أبيض يستر شعرها، ولكنه يعطيها مسحة ملائكية حزينة وبريقاً من البراءة والسماح.

قال لها - وقد غير من لهجة الحزم والأمر فبدا في كلامه شيء من الحنان -:

عند انتهائك من الأعمال الروتينية في البيت، يمكن أن تجلسي معي الأسمع منك سيرة الماضي، ونتبادل أطراف الحديث عن الحياة ومشكلاتها كما سأقص عليك أجزاء من حياتي، فلا بد في مثل هذه الوظيفة، من أن يشوبها شيء من الصداقة، واضحة الحدود.

عرفت سميرة أن الحاج عبد القادر، في حاجة إلى من يستمع إليه أكثر من أي شيء آخر، وأنه في حاجة أيضاً، أن ينصت إلى الآخرين فيتواصل مع الحياة، وإن لم يفعل فسيكون مستحاثة حية أو مومياء تتنفس. وبرغم أنه ما يزال

في بداية الكهولة، إلا أن له قدرة على العمل واضحة، ولم تكن ثمة أسباب صحية تجبره على الانقطاع عن الحياة، فلماذا هجر العمل ١٢ لا بد أن يكون الانقطاع يسبب نفسي، أو أزمة طارئة. فهمت ذلك بغريزتها وخبرتها الطويلة مع الناس.

في بداية أيامها في العمل، كانت ابنة الحاج عبد القادر تنهي عملها في مدرستها وتعود إلى البيت لتدرب الخادمة الجديدة على البرنامج الروتيني من طبخ وغسل، وما إلى ذلك، ووجدت فيها تعلماً سريعاً، وذكاء الماحاً وطاعة كاملة، وأفهمتها الابنة أن أباها في حاجة إلى من يجالسه ويسمع منه، ويستمع إليه. وبرغم أنه لم يوغل كثيراً في العمر، إلا أن الإنسان في داخله طفل، يحتاج إلى مجالسة ومؤانسة، وحنان وقصص، يتسلى بها أو يستفيد منها، كانت سميرة ماهرة في جمع معلومات عن الحاج عبد القادر وحياته وعمله، بطريقة غير مباشرة أو مباشرة، تسأل ابنه أو ابنته عن ذلك، من دون لفت نظر، يأتي السؤال في سياق الحديث عن العمل، تقول مثلاً:

- هل يحب الحاج عبد القادر السهر ؟ ومن يخدمه ليلا؟ ومتى يستيقظ ويشرب قهوته؟ وهل له اهتمام بالقراءة أو بالتلفاز ؟ ومتى يذهب إلى عمله؟ وما عمله؟ ولماذا ينشغل عنه؟

تقول لابنته

هذه المعلومات ضرورية من أجل خدمته ومعرفة رغباته. أريد أن

اعرف ما يريد وما لا يريد.

بعد أسبوع، وقد أنهت سميرة عملها الروتيني في المطبخ، ناداها الحاج عبد القادر وقال :

- سميرة، أريد ركوة قهوة، وانتي بفنجانين أريد أن أتناول معك القهوة ونتحدث ...

فرحت سميرة، ووجدت أن بإمكانها أن تستمر طويلاً في وظيفتها، وهي

في حاجة ماسة إليها.٣١

جلست على كرسى وبينهما منضدة، قدمت له فنجانه وصبت لنفسها

فنجاناً آخر، قال:

- أريد أن تحدثيني عن حياتك الماضية، منذ ولادتك حتى يومنا هذا .

ضحكت سميرة وقالت:

- ربما يستمر الحديث أكثر من شهر.

قال: وقد فتن بضحكتها التي أبرزت المزيد من جمال مخبوء تحت

غطاء الفقر والانكسار).

- اعتقد أنك ستستمرين طويلاً في هذا البيت.

أعطتها كلماته ثقة وتفاؤلاً وقالت :

- أتمنى ذلك فقد وجدت عندكم الطيبة والألفة والأخلاق والكرم.

وأنا وجدت فيك المرأة الجميلة، التي حرمتها الحياة من السعادة.

- إليك إذا، يا حاج عبد القادر، قصتي مع الحياة....

كان والدي رحمه الله يعمل إسكافياً في الحارة الشرقية من عشوائيات العاصمة، يصلح للناس أحذيتهم المتهرئة، ويكسب القليل، وقد أنجب عشر بنات. كان يتمنى أن يأتيه ذكر واحد على الأقل، وكلما أنجبت له أمي بنتاً كان يقول لعل القادم يكون ذكراً، فيخيب أمله حتى ينس وتوقف عند العاشرة .... كنت الثالثة بينهن عشنا على الكفاف، وبتسارع الزمن كبرنا.

كان والدي يحب أن يعلم بناته، ولكن العلم مكلف فما تكاد البنت عنده تصل إلى الصف السادس حتى تقعد في البيت وتنقطع عن المدرسة بانتظار نصيبها. كان متساهلاً أمام أي شاب يطلب إحدانا للزواج، لا يسأل عنه كثيراً، ولا يدقق في سيرته، ولا يترك فترة يختبره فيها. كان يسأله سؤالاً واحداً أو سؤالين :

- هل عندك بيت للسكن يا بني؟

إذا كان يملك بيتاً، يوافق فوراً وبلا تردد، ولا يطلب منه لا أحمر ولا أصفر،

أما إذا كان مستأجراً، فيقول له:

- (ومالو (1) المهم أن تكون بيدك صنعة تتكسب منها.

يوافق عليه، بعد أن يتأكد من حرفته التي يكسب منها قوته، ولم يكن لابنته أن تعارض فإذا وافق الأب فعليها أن توافق، وإذا عارض فعليها أن تتبنى وجهة نظره، الغريب أنه زوج بناته كلهن قبل أن يموت، لم تكن أي بنت منا سعيدة، فليست الغاية هي السعادة، وإنما السترة كما كان يقول.

عندما تقدم لي فاروق البرنجي، وكانت مهنته الذبح في المذبح الحكومي

التابع للبلدية، قال أبي يومها :

هذا أول موظف يتقدم لإحدى بناتي.

- قالت له أمي:

ولكنه (دباح) بقر! فما قيمة وظيفته؟

- الوظيفة تضمن أسرة الموظف وشيخوخته.

تزوجته فاكتشفت أنه مدمن خمر، وشرير قاس، و (بطحة العرق) لا تفارق جيب سترته الداخلي، في أول أسبوع من زواجي، شرح لي أصول مهنته

فقال :

- يأتون بالبقرة إلى المذبح البلدي، فيمسكها زميلي، ويربطها من رقبتها، او قرونها بجنزير يعمل على بكرة رافعة، ثم يشد الجنزير فترتفع رقبتها، فتضطر إلى الوقوف على رجليها فقط، ويكون في يدي ساطور حاد عريض ومستون فاضرب رقبتها، ويتدفق الدم كشلال غزير، تقوم البقرة بحركات

هي آخر حركاتها في الحياة، ومن حلاوة الروح تحاول الفكاك، ولكن أين لها النجاة، وقد علقت بالجنزير، وذهبت أنا بالساطور بقوة، فانفتحت رقبتها، وتلاشت روحها ويسكن الحراك، فيأتي موظف ثالث ليسلخها ويقطعها، وتؤخذ بعد ذلك إلى دكاكين الجزارين.

قلت له يومها :

- لقد أخفتني، وانتابتني قشعريرة، ولكن ماذا تشعر عندما تذبح البقر ؟

ضحك وقال :

- لقد امتهنت عملي عن هواية، فأنا أشعر بلذة، كأنها النشوة وتتلاشى توتراتى وافقد انزعاجي عند الذبح، بل أشعر بمتعة لذيذة لا أعرف سببها ملك البداية أخافتى، وتأكدت أنه يتمتع بشخصية عدوانية شريرة، يزيد أوارها العرق والخمر، كان لا ينام معي إلا بعد علاقة، يتخضب إثرها جسدي، أصبح وأصرخ فيتلذذ ويتمادى فى الضرب، ثم يعصرني كضيع يفترس خروفاً، يعضلى ككلب جائع قد عثر على لحم أو عظم، وبعد أن يفرغ شهوته ينام كبهيمة ويشخر .

عندما يستيقظ يعتذر قليلاً فيقول:

- لا أجد اللذة إلا بالعنف ثلاث سنوات وأنا لا أعرف من الزواج سوى التعذيب الممنهج، ولم أعرف أنا خلالها، ما يسمونه النشوة، برغم أنني حملت وأنجبت له ولداً جميلاً، لكنه مات بعد سنة (بالكراز)، إثر جرح أحدثته قطة ملوثة.

حمله إلى المقبرة، وعاد ليلاً إلى الخمارة، وكأن شيئاً لم يكن، حملت بولد آخر، فمات من الهزال والحمى، وكان عمره ثمانية أشهر، لم أعد أطيق الحياة معه، فعدت إلى دار أبي، الذي استقبلني بازدراء وعصبية، ثم قال لي:

- لماذا عدت؟

- شرحت له ما عانيت في السنوات الثلاث المنصرمة، وتوقعت ان

يواسيني، أو يضمني إلى بيته، لكنه عنفني وقال :

البنت عندما تتزوج، ليس لها إلا بيتان، بيت زوجها أو القبر.

- ولكنه يضربني كل ليلة ويذلني، ويعود مخموراً.

عليك التحمل، فهذا قدرك.

كان معظم راتبه يصرف على الخمر، ولا يكاد يأتي إلا بقوت شحيح إلى البيت، لكنه في كل ليلة يسكر في خمارة وضيعة، مع رفيقين على شاكلته من رفاق السوء.

في إحدى الليالي سكر سكراً شديداً، وعاد مع رفيقيه يترنحون في الطرقات بعد منتصف الليل، تشاجر مع أحدهما، لأنه قال له في معرض الحديث :

من أين يأتيك الفهم، يا (دباح) البقر ؟

غضب فاروق وهاج ثم شاجره وتعاركا، وأخرج من جيبه سكيناً ضربه بها في رقبته، ثم ذبحه تماماً كما كان يذبح البقر، حاول شريكه الثاني، أن ينتزع منه السكين فهوى فاروق بالفصل على قلبه، ففارق الحياة حالاً. قتيلان على قارعة الطريق بلا حراك. كانا منذ ساعتين ينادمانه، ويقرعان الكؤوس والأنخاب، لم يندم على ما فعل! بل غسل سكينه تحت حنفية الماء، القائمة على زاوية

الطريق، وغسل يديه أيضاً، وكانه لم يأت بأي عمل منكر، في تلك اللحظات من الليل، كنت نائمة فأيقظني ولم أكن أدري بما حصل، لكن هيئته المفترسة الشيطانية، كانت تدعو للرعب، فحسبت ذلك بسبب سكره المفرط.

بدأ يضربني كالمعتاد، ثم عصرني فضلت أن روحي قد غادرت جسدي ثم اغتصبني وكنت أصبح من الألم، وأتلوى تحته كالذبيحة، ولم أدر ساعتها، أنه قبل قليل قد ذبح رجلين كانا يجالسانه وينادمانه، لقد فعل ما فعل وكأنه تحت ظرف عادي، يمارسه كل ليلة بتلك الطريقة.

ثم جاء رجال الشرطة وأخذوه من البيت.

بعد محاكمات طويلة حكم عليه بالإعدام، وخفف الحكم إلى المؤيد. بسبب السكر، وبعد سنة من حبسه رفعت دعوى تفريق، وحصلت على الطلاق بمساعدة محام رق الحالي، عدت بعدها إلى بيت أهلي ومكنت سنة أخرى، فتقدم لي عجوز في الثمانين، وتحت ضغط من أبي، وافقت عليه من دون تردد، كان يدعى أبو سعيد مريض متهالك يحتاج إلى ممرضة تنام قرب سريره، وكان ابنه سعيد مقاولاً بخيلاً، ذا مال ! لكنه يحسبها على القرش كما يقولون، أراد أن يزوج أباه بدل أن يوظف له ممرضة، فذلك أوفر لجيبه، إضافة إلى أنه لم يجد

ممرضة تقبل ملازمته طيلة الوقت، وقد علمنى زرق الابر وقياس نسبة السكر في الدم، وقياس الضغط، وهي أجهزة بسيطة يتعلمها المرء في دقائق.

كان السعيد صديق، يدعى الدكتور زياد فستق بزور أباه على فترات وباتيه بالأدوية المجانية التي توزع كنماذج للدعاية، والدكتور زياد هو من أشار

عليه بتعليمي المبادئ الأولية للتمريض، وقد تعلمتها في عيادته وتحت إشرافه.

علمت فيما بعد أن سعيداً والدكتور زياداً شريكان في تعهدات لبناء الشقق على الهيكل، وبيعها بأرباح خيالية، وهذا ما كان يسره لي أبو سعيد في الأوقات التي يحدثني فيها عن نفسه، فقد كان في حاجة إلى من يستمع إليه، أكثر من أن يستمع لأحد.

كنت أسهر الليل قربه، وقد وضعوا لي سريراً في غرفته، ولم تكن لتنام في السرير نفسه، فقد كان يعاملني كخادمة وليس كزوجة، أعطيه الأدوية في وقتها، وأراقب ضغطه، وأقيس له السكر يومياً، كما كنت أطبخ له الطعام الخاص به

مرض يوماً مرضاً شديداً واستيقظ ليلاً وقال :

اصعدي إلى سريري واسندي ظهري إلى صدرك.

وبدأ ينازع، ففزعت، ولكن ما كان لي إلا أن أصبر. ثم شخر شخرة مفزعة، وخرج السر الإلهي من جسده هرعت فزعة مسرعة، واتصلت بابنه جاء ابنه سعيد وقام بالإجراءات، ودفن عصراً، وبعد الدفن قال لي بعد أن دعائي إلى حجرة أبيه:

- سميرة، لقد تعبت مع حياة والدي، وأنا سأكافئك، سأشتري لك بينا خاصاً بك.

فرحت جداً ولم أصدق قال:

- ليس هذا مزاحاً، إنه ملحق على السطوح، صغير ولكنه سيفي بالغرض.

قلت في نفسي يا للشهامة ثم لم يلبث أن قدم لي عقداً، تنازلت فيه عن حصتي من الميراث، وقد تبين لي فيما بعد أن هذا الملحق لا يساوي إلا شيئاً يسيراً من شركة أبي سعيد، التي تقدر بمئات الملايين، وهذا الملحق أسكنه الآن واختى الأرملة.

ألم يكن أبو سعيد ينام معك، ويعاشرك كما يعاشر الأزواج زوجاتهم؟

ضحكت برغم همها وحزنها، وقالت:

كان يتعب من شرب كأس الماء، فكيف تريده أن يعاشر النساء

ولا حتى بالكلمات أو اللمس؟

مرة وضع يده على صدري، ولامس بكف مرتعشة ثديي الأيمن، نظرت إلى يده، كانت سوداء ككف المومياء، ثم أنزل يده إلى فحدي، وأطرق لحظة ثم نظر نحو الأرض.

- لماذا فعل ذلك؟

- ربما خجلاً من رجولة أفقده الزمن إياها، بعدها لم يعد يمد يده إطلاقاً.

لكم تعذبت في حياتك يا سميرة

- أمثالنا خلق للعذاب، وهذا قدرنا، علينا أن نرضى به. إن الحياة تسند لك دوراً، عليك أن تؤديه، قد يكون دور السيد المطاع، أو الخادم المطيع، وفي كل الأحوال، عليك أن تتقن الدور الذي تلقي به الحياة إليك.

- ما رأيك في المجتمع الذي عشت فيه، وكيف تلقيت نظراته؟

- كنت دائماً فريسة، يحل صيدها وأكلها، وكنت دوماً مخدوعة، لأن الثعالب والذئاب كانت تحيط بي من كل صوب لم أفقد إيماني بالحياة والإنسان، ولم أيئس يوماً من رحمة الله، برغم كل المصائب التي نزلت بي، حافظت على طهري وشرفي بعد موت أبي سعيد، عدت وسكنت الملحق، ولكن من أين لي أن أصرف على نفسي، فاضطررت للعمل عند أرملة كانت تعيش

وحدها، فى بيت واسع جداً، متعدد الغرف فى كل غرفة سرير وطاولة سفرة صغيرة، مع حمام ومغسلة، ومشجب عليه بشكير ومنشفة.

قالت الأرملة:

يجب أن تكون الغرف نظيفة معطرة، وأن تغير الأغطية كل يوم.

قلت:

لماذا تغييرها، إذا لم يكن في البيت غيري وغيرك؟

- قد يأتي أولاد خالتي فينامون في الغرف، وأضطر لتقديم أطباق خفيفة لهم ، ولذلك نضطر إلى تنظيف الغرف وتغيير الأغطية.

كانت الغرف تشغل في فترة غيابي، والأغطية مدعوكة، وتتسخ كل يوم، ولم أكن أعرف السر. على كل هذه مهنتي، وعلي أن أقوم بالتنظيف، ولا أسال

الأرملة عن السبب، ومن البداية قالت لي :

- سيكون عندك عمل آخر غير التنظيف والغسيل، وهو حمل اللحم وبعض بقايا الطعام إلى القطط في الحديقة البعيدة عن البيت، إنها تجتمع هناك، وعليك انتظارها حتى تفرغ من تناوله، وسأحدد لك وقتاً تقضينه معها في الحديقة، ولا تعودي إلى البيت إلا بعد انقضائه. إن القطط مخلوقات ضعيفة ولا تجد من يعولها، هذه هواية وعمل خير. كنت أعلم أن كثيراً من سكان

المنطقة جائعون، وربما لا يتناولون اللحم إلا مرة في الشهر .

قلت لها :

القطط تستطيع تأمين قوتها بنفسها من الحاويات، وإذا أردت المساعدة

فساعدي جيرانك الفقراء.

قالت :

- لا أشاطرك الرأي، إن القطط مخلوقات بريئة، والناس يستطيعون تدبير أمورهم، أما القطط، فلا أحد يعتني بها.

كانت تأمرني أن أحضر طعاماً، ليس كالطعام. إنه أشبه بالمقبلات أو (المازاوات) تبولة، قطع مرتديلا في صحون صغيرة فاخرة، السنة، صحون من

الفستق الحلبي والمكسرات، وقلت في نفسي: إن هذه الأرملة غريبة الأطوار)

ماذا تعمل بكل هذه الصحون التي تحفظ في براد كبير ؟!

مرة اكتشفت أنها كانت تصب خمراً في كأس أنيقة ناهضة، لكنها ذات حجم ضئيل، تجلس في حديقة المنزل، وتحتسيه مع صحن أو صحنين من المقبلات التي أعدها اكتشفت فيما بعد، أن خزانتها مليئة بزجاجات الويسكي والمشروبات الأخرى. كانت الخزانة موجودة في المطبخ، ولما أتي صباحاً للتنظيف الاحظ العديد من تلك الزجاجات فارغة، وكنت أحد معظم الأسرة في العرف، وقد دعكت أغطيتها ومساندها، وتوسخ بعضها، وأن أحداً ما كان قد نام عليها لفترة من الوقت، فكنت أرتبها وأخذ الصحون الفارعة من الغرف إلى المطبخ، وبعدها أرتب الأسرة، وبعد تبديل الأغطية كانت الأرملة تقول لي :

جاء أولاد خالتي من الأردن، وكانوا مسافرين إلى حلب، أمضوا عندي ساعة، ثم تابعوا السفر، وقد قدمت لهم ضيافة من الطعام الذي تعده، وشربوا بعض الكروس.

معظم الأسرة نام عليها بشر، ودعكوها، وقد اتسخ بعضها.

- المسافر دائماً في عجلة من أمره، ويحتاج نوم ساعة، وتناول بعض الطعام، ويفضل أولاد خالتي النزول عندي، بدل أن ينزلوا في الاستراحات العامة. ولكنهم تقريباً قد أتوا على كل المقبلات والمكسرات، وخلفوا العديد من الزجاجات. أحياناً يأتون بأصدقائهم أو زوجاتهم.

مرة كنت في المطبخ، وقرع الباب، أردت أن أذهب لأفتحه، قالت الأرملة:

- أنا من سيفتح الباب، تابعي أنت شغلك في المطبخ - دخل شاب أنيق

وفتاة متبرجة، يظهر صدرها، ويرتفع ثوبها إلى ما فوق ركبتها، فأدخلتهما الأرملة مباشرة إلى إحدى الغرف، وحملت لهما بعض الصحون، ثم كأسين من الويسكي، ووضعت فيهما مكعبات الثلج، وقالت لي دون أن أسألها :

- ابن أختى وخطيبته يريدان اللقاء عندي، وهذا أفضل من لقاء الكافتيريا).

ثم قالت لي :

- اتركي عملك الآن، وخذي طعام القطط إلى الحديقة، ولا تعودي قبل ساعتين.

حملت طعام القطط، وذهبت إلى الحديقة، وضعت الطعام وفردته، وقد تجمعت قطط ثلاث يلتهمنه، في حين جلست على كرسي خشبي في الحديقة أفكر في تصرفات الأرملة التي تدعو للريبة والشك، ربما تسهل لقاء العشاق وتتقاضى على ذلك أجوراً، إضافة إلى ثمن الطعام والمشروب، ولا بد أن يكون هذا البيت سيئ السمعة، وأنا لما عملت عندها، لم أسأل عنها أحدا من الجوار لأنني كنت في حاجة إلى العمل. عدت بعد ساعتين وتابعت عملي المعتاد في المطبخ، ثم جاءت وقالت لي :

- اذهبي ورتبي الغرفة التي استراح فيها ابن أختي مع خطيبته.

ذهبت إلى الغرفة، وكان سريرها مضطرباً، كما لو أن أحداً نام فيه

وبعثر أغطيته، ورأيت كأسين فارغتين، وبقايا طعام.

راد شكي بأن في الأمر تسهيل دعارة من نوع ما بعدها ذهبت إليها

وقلت:

- أريد أن أعرف طبيعة العمل في هذه الدار، ومسألة الزوار، والطعام

والمشروب

كانت الأرملة، تنظر محدقة، تريد أن تستشف ما يجول في ذهني، لم

تغضب كانت هادئة رصينة، فقالت:

- نحن في هذه الدار نقدم خدمة إنسانية، في بلد لا يعترف بالحب

ولا بالحرية، صحيح أننا نتقاضى لقاء ذلك أجراً مجزياً، وربحاً وفيراً، لكننا فوق ذلك، تدخل الفرح إلى قلوب المحبين ماذا يضير أن يلتقي عاشق بحبيبته في غرفنا، يتناولان طعامنا، ويشربان خمرنا، ويتحادثان ويلهوان

وكل شيء بحسابه نقيض المال ونمنحهم الأمان والفرح والطعام والشراب والحرية. إن الدولة تمنع الفنادق من تقديم مثل هذه الخدمة في غرفها، ربما فنادق السبع نجوم والخمس نجوم تفعل ذلك خفية، أو بالتواطؤ، فيغض عنها النظر، مع أنهم في الغرب، يعدون ذلك من اختصاص الفنادق، التي تؤمن لهم الخلوة الآمنة، وتقبض منهم الأجر المناسب. أنت يا سميرة معذبة، ولم تعرفي مسرات الحياة المال مفتاح كل سعادة، هل يضيرك أن تعملي في بيتي، وقد عرفت حقيقة عملي؟

لم لم تقولي الحقيقة منذ البداية؟ ثم لماذا تصرفينني إلى الحديقة؟ وتتذرعين بمحبة القطط وإطعامها ؟ إن في ذلك نوعاً من الخداع.

- خفت أن تمانعي، وأنا في حاجة يومها – و ما زلت - إلى صبية جميلة مثلك، وإذا وافقتني على مشروع أعده لتطوير حياتك، فبقليل من الزينة يصبح جمالك فتاناً، وستكسبين ثروة لا تحلمين بها، وسيكون عندك سيارات وعمارات وأرصدة في البنوك.

فهمت قصدها، وعلمت أنها تسهل الدعارة، بل وتحض عليها،

فقلت لها :

- قبلك حاول كثيرون إغوائي، وبقيت نقية كالثلج. الحرة تجوع ولا تأكل بثيبها».

أخذت حوائجي وغادرت.

بقيت أياماً من دون عمل أفكر مذهولة في تلك الأرملة، وبالدرك الذي يتحدر إليه أمثالها، وكنت أحتاج تأمين القوت لي ولأختي التي تسكن معي فشطفت الأدراج، و (عزلت ونظفت بيوت الموسرين، حتى قرأت طلب الوظيفة التي نشرتها أنت في الصحيفة.

تأثر الحاج عبد القادر بقصة سميرة، وتألم لمعاناتها، وأعجب بحفاظها على شرفها. أشفق عليها، ثم وجد قلبه ينبض بالحب، لأول مرة نحوها.

قال في نفسه:

- أهذا هو الحب الذي عناه عباس الداعور ؟ إنه لأول مرة يشعر بقلبه ينبض، وبضميره يستيقظ، ولكن ما الحب الذي عناه بعضهم بقوله:

الحب في داخلك، لكن عليك إزاحة الغشاوة)؟

الآن فهم بعض تلك العبارات الغامضة عندها تخيل نفسه الفراشة التي ثقبت الشريفة وطارت أخرجته سميرة من الشريعة، في الوقت الذي عجز الطبيب النفسي عن إفهامه أس الحب الذي دعاه إليه.

- قد حدثتك باختصار عن قصتي، فحدثني قليلاً عن طفولتك؟

سر الحاج عبد القادر من سؤالها، وعاد طفلاً يلعب مع أقرانه في الحي. وتذكر مرة أنه ذهب يوماً إلى دكان والده في سوق الحميدية، فوجد عنده رجلاً يجلس أمامه، فقال له الرجل:

- هل تشتري يا حاج سليمان، كيس الصابون هذا بمئتي ألف ليرة سورية.

قال له:

- نعم اشتريه بمئتي ألف ليرة سورية، ومد يده إلى الصندوق، وناوله رزمتين أخذهما الرجل بعد أن وقع على إيصال. لم يعرف الصبي عبد القادر يومها فحواه، لكنه استغرب أن يكون ثمن كيس من الصابون مئتي ألف ليرة سورية، فسأل أباه

- هل يعقل أن يكون سعر كيس من الصابون مئتي ألف ليرة سورية؟

ضحك الحاج سليمان من سؤال ابنه عبد القادر، وقال له :

- أراد هذا الرجل أن يستدين مني مئتي ألف ليرة سورية، بفائدة وربا

فاحش والربا عندنا حرام، أما البيع فحلال، وقد أعطيته منتي ألف ليرة واشتريت منه الصابون بمئتي ألف، فهذا يرد على حرمة الربا. قال يومها عبد القادر :

ولكن، كيف ستستعيد المبلغ ؟

قال الحاج سليمان

ستنقلب الآية، أقدم له كيساً من البرتقال، وأقول له هل تشتري هذا الكيس بمئتين وخمسين ألف ليرة سورية؟ وأكون أنا قد أضفت خمسين ألفاً، فائدة المبلغ، فيقول لي المدين - وقد جاء لرد دينه -:

- اشتريت منك البرتقال بمئتين وخمسين ألف ليرة سورية، ويناولني المبلغ ويسترد إيصاله، وتكون بهذه الحالة، قد خرجنا من حرمة الربا إلى حلال البيع.

وفي الوقت نفسه ربحت الفائدة.

في ذلك اليوم؛ تعجب الابن من تصرف أبيه، الذي قال:

عليك أن تكون حاذقاً في الدنيا والآخرة، فالذكاء والشطارة مطلوبان

للدنيا والآخرة.

لكنه نسي كل ذلك فيما بعد، والآن يتذكره بعد سماع قصة سميرة مع الأرملة، فقال في نفسه: هل تشبه الأرملة أبي في بيعه الصابون والبرتقال وتسويغه الربا تشبه أبي، وهو يستخف بربه، ويتلس ويحتال عليه، ويظن أنه شاطر ذكي، وهل هما مشتركان في صفة الإثم أو أن الأرملة هي الأنقى

والأقل إنما ؟).

حدث الحاج عبد القادر سميرة بفرح عن طفولته وشقاوته في الحي، كيف كان ورفاقه يلاحقون القطط، أو يتسلقون الأشجار. كانت أياماً طيبة سعيدة، ولكنه لما دخل الدكان لم يعرف للسعادة طعماً، كان يظن أنه إذا بلغ رصيده في المصرف الرقم الفلاني فقد تأتيه السعادة بغتة، فينعم بها، ولكنها لم تأت حتى الآن، ربما وجد اليوم نافذة بحرية تهب رياح الحب من خلالها، وما كانت هذه

الناقدة لتكون لولا سميرة التعسة الحزينة التي أعطته رغم تعاستها وكابتها فرحاً عظيماً، ظهرت بشائره. لكنه خشي أن يكون هذا الحب إشفاقاً، أكثر من أي شيء آخر، ومهما يكن من أمر فإن هذا الشعور أعطاه أملاً بحب الحياة، بعد

أن ملها، وأن الأيام القادمة تبشر بسعادة طالما افتقدها، وبحث عنها في كل نفسه، ولكن من خلال سميرة المعنية، التي بدورها لم تعرف طعم السعادة. مكان حتى في زوايا المتصوفة، فلم يجدها، لكنه أخيرا وجدها في بيته وفى

سألها :

وماذا تعلمت من شطف الأدراج، أقصد هل لفت انتباهك – خلال العمل - شيء غير مألوف، في سلوك الناس؟

- أحداث غريبة كانت تحدث، الناس كلهم يراقبون بعضهم، هكذا من

دون سبب، ربما يتصيدون الأخطاء ويحتفظون بها ليوم يحتاجونها. فى إحدى

العمارات كانت أرملة تسكن وحدها، وربما كانت تلتقى بعشيقها سرا، كانت

تقول لي:

- في كل مرة تأتين العمارة، مري بي لترتيب الشقة وأعطيك أجراً مجزياً.

في إحدى المرات، كان العشيق في الداخل، وعندما قرعت الباب، سمعت

همسها من الداخل تقول له:

- لا تخرج الآن، إنهم يشطفون الدرج.

أجابها:

- إني مضطر الآن للخروج، ابحثي عن طريقة ما لإخراجي.

رأيتها تفتح الباب، وأدخلتني إحدى الغرف، ثم سمعت وقع أقدامه وهو يخرج. المشكلة أن الجارات شاهدنه يخرج، وظنن أني متواطئة معها،

وأمطرنني بأسئلة، وفي عيونهن نظرات الريبة والشك ....

يومها، قلن لي:

- لم نعد في حاجة إلى شطف درج البناية

كانت سميرة تريد أن تخرج أخباراً كثيرة من جعبتها، لكن الهاتف رن

فتناوله الحاج عبد القادر، وقال:

- أهلين عباس، ماذا في الأمر ؟

- هل من الضروري حضوري الآن؟

- سأكون عندك بعد قليل.

أغلق السماعة، وقال السميرة:

- أنا ذاهب إلى الدكان، يحتاجونني لأمر مهم.

ارتدى ثياب الخروج، وشاهدته سميرة يخرج من جيبه رزمة من النقود

ويقول:

- هذه علاوة، اشتري بها ثياباً جديدة، وأصلحي من هندامك، اذهبي إلى مركز تجميل، وأريد أن أراك غداً في أبهى حلة.

ارتبكت، وخجلت، وإزاء إصراره أخذت المبلغ، ثم ودعها وخرج.

٤

ركن الحاج عبد القادر سيارته قرب مدخل سوق الحميدية، واتجه إلى دكانه سيراً على الأقدام الزحام شديد، وعمليات البيع والشراء على قدم وساق، والصفقات تعقد في الزوايا، والغين سيد الموقف، كما أن التدليس يترافق مع الأيمان المغلطة، أحد ما قد خدع، والآخر زاد رصيده وامتلأ صندوقه.

خمسة وثلاثون عاماً من عمره، ضاعت في هذا السوق المسقوف، كان براء بوابة للسعادة الخالدة، والفردوس الموعود، الآن يراه قائماً مقبضاً، كبؤرة أو تقب أسود، لم يره بهذا السوء كما يراه اليوم. ما الذي تغير ؟

خطرت في ذهنه فكرة راودته لأول مرة، هل السوق يساوي السوء؟ هل الكلمتان متشابهتان في المعنى، كما تتشابهان في النطق أيضاً؟ ففي دمشق تخفف القاف لتتحول إلى همزة، فالسوق تلفظ باللغة المحكية (سوء)، إنها تنعم وتملس التجارة تحتاج إلى ملمس ناعم، ولفظ رخص، فتلفظ كلمة السوء تعبيراً عن المسوق. وتساءل في نفسه: هل لهذه المفارقة من دلالات؟ ولماذا لم يخطر في باله ذلك إلى الآن؟ وفي بلده يصفون الرجل المحلك، الذي يعرف من أين تؤكل الكتف، بأنه ابن سوء أي ابن سوق)، وهل كان هو فعلاً كذلك؟ هل ورث ذلك عن أبيه؟ أو عن خبرة السوق نفسه؟ أو عن الاثنين معاً؟ إن تجاراً خرجوا من الحلبة لأنهم لم يتقنوا اللعبة؛ لعبة السوق، ولم يكونوا أبناء سوق، بحق وحقيقة، لأنهم لم يكونوا أبناء سوء، ولماذا لا توجد لعبة السوق، إلا في البلاد المتخلفة؟ ولماذا ترتبط الجودة والأمانة والثقة في الأسواق ببلاد أخرى.

فهمت التجارة كما يجب، وفهمت الحياة كما ينبغي، فأدركت أن الشطارة الحقيقية هي بإتقان المنتج، والصدق في التعامل، والتخلق بالأمانات، لا بالغش والخداع. وهل حقاً ما اجتمع مال إلا من شح أو حرام؟ أم أن المال ينمو ويتكاثر بسرعة دورته الاقتصادية، وفي حسن الإدارة والفهم، وعدم إهمال الفوائد الاجتماعية من دورته، لأنها تعود في نهاية المطاف خيراً على الجميع. ثم أين تكمن السعادة المنتظرة ؟! وأين يريض الفردوس المنشود ؟ وكيف تجد سميرة درويش وأخواتها ومثيلاتهن، موطئ قدم في أرض يديرها ويسودها سوق باطنه سوء.

دخل دكانه فوجد عباساً بانتظاره، وعلى كرسي خلف الطاولة، جلس رجل أمامه ملف وأجندة عرفه به عباس بأنه مأمور الضرائب، الذي نهض وصافحه.

قال المأمور :

- نريد دفاتر البيع، لتكلفك على ضوئها بضريبة جديدة.

كان عباس يعرف أن للحاج عبد القادر - شأن معظم التجار - دفترين دفتر البيع الحقيقي، الذي يحتفظ به التاجر لنفسه، ودفتراً شبيهاً، لكنه مزيف ومحور يقدم للمالية. وبرغم الأرباح الهائلة التي يجنيها التجار من دكاكينهم إلا أنهم ما يزالون يشكون حين يحضر مأمور المالية للتكليف، متألمين شاكين من الكساد وقلة الأرباح وكثرة المصاريف.

مرة قال موظف بسيط: إنني أدفع شهرياً ضريبة دخل، تقتطع من راتبي أكبر مما يدفعه صاحب أشهر محل في سوق الحميدية، ضرائب عن محله).

قال الحاج عبد القادر مخاطباً عباساً:

- الدفاتر أمامكم دع المأمور يطلع عليها.

غمز عباس الحاج عبد القادر وقال:

- هذه مسودات البيع تحتفظ بها لنفسك، فأين الدفاتر التي ستقدم للمأمور ؟

- ليس عندي سوى هذه الدفاتر الحقيقية، فليفرض المأمور الضريبة وفق البيع الحقيقي.

استغرب عباس ما تقره به الحاج عبد القادر وارتبك قليلا ثم قال:

- ساعة القهوة، ريثما يتم الشرح والاستفهام.

أراد عباس بهذه الحركة أن يخلي الجو للحاج عبد القادر والمأمور للتفاوض والمساومة على خفض الضريبة لقاء دفع (المعلوم)، ونظر المأمور إلى الحاج عبد القادر مستفهماً ومنتظراً وكأنه يقول له: (الكرة الآن في ملعبك).

لكن الحاج عبد القادر على خلاف العادة والمتوقع، لم يساوم المأمور أو يشكو له قلة البيع، وكثرة المصاريف، والكساد المستشري، بل قال له:

- حدد يا سيد الضريبة التي استحق، بكل عدل وإنصاف، لا تجر ولا تظلم، فمثل ما لنا من حقوق علينا واجبات.

الموظف نفسه استغرب، هذه ليست عادة معظم التجار في مثل هنا الموقف، هم يساومون ويشتكون، وأحياناً يدفعون. كما أنها ليست أيضاً من عادة الحاج عبد القادر، وأبيه الحاج سليمان فيما سلف، فلا بد أن تغييراً ما قد حصل

جاء عباس بالقهوة، وشرب المأمور، ودخن، وانتظر أمارات جديدة تحدث أو إشارات توحي بالتغيير، ولكن الحاج عبد القادر ظل على موقفه ثابتاً، فيس المأمور وانصرف بعد أن قال:

- سأعود مرة ثانية.

عقب انصرافه قال عباس

- لماذا لم تظهر الدفاتر الخلبية، التي تعد عادة لمأمور الضريبة؟

- لن يكون عندي مستقبلاً، سوى الدفاتر الحقيقية، ويجب أن يكون لم مالي حق معلوم للضرائب.

قال عباس:

لقد تغيرت يا حاج عبد القادر، فما الذي غيرك؟ أنا أعرفك، وقد لازمتك جاراً وزميل مهنة مدة طويلة من الزمن.

نعم تغيرت، ومن الآن أتحرى الصدق في العمل، وقد قررت أن أوزع فوائد أموالي الموضوعة في المصارف على الفقراء والمحرومين. هناك أناس يتعذبون ويعانون، وما كنت لأشعر بهم، لأن حب المال حجب عني يعيش مقيت الحب الإنساني والتعاطف الرحماني. أناس مثلنا ضاقت بهم السبل، فاحتاروا في تأمين لقمة العيش، وإيجاد المأوى الذي يليق بكرامة الإنسان، لم لا تلتفت إليهم بمودة، ونبذل لهم العطاء، فللعطاء لذة أروع من تكديس المال ؟! حب المال قزم حياتي، وجفف ينابيع إنسانيتي ومشاعري وأنساني الحب الحقيقي المنزه عن نتن المصالح، سأترك الربا وأبذل العطاء، وهذا مدخل للحب الذي افتقدته.

في هذه اللحظات، دخلت المخلصة الجمركية نور الصباح الماوردي. عرفها من الأوصاف التي كان عباس قد أدلى بها إليه عبر الهاتف، فاحمة الشعر طويلة هيفاء عيناها بلون الغابات في أول الربيع، يشع منهما بريق ذكاء، وحركات حيوية من جسدها، تتم عن طاقة ممزوجة بغنج، لكن مسحة من البراءة تلفها . عرفه بها عباس

- المخلصة الجمركية ؛ نور الصباح الماوردي

صافحها الحاج عبد القادر، معرفاً نفسه، ثم بعد هنيهة أردف:

- نور الصباح اسم جميل، بل هو اسم على مسمى.

- شكراً على اللطف.

ثم مستعيداً جدية رب العمل وحزمه

- كيف تسير الأمور في تخليص البضائع الإيطالية؟

- الآن عدت من الحرم الجمركي سددت الرسوم، بعد أن امت المانافست)، وأصبحت البضاعة مخلصة جاهزة لنقلها إلى مستودعاتنا .

ثم اتجهت إلى عباس وقالت له :

- حبذا لو أرسلت الحمالين مع السيارات لنقلها.

قال عباس:

- سأذهب مع الحمالين، ومعنا السيارات لنقل البضائع، ولا داعى لذهابك

معي، ابقي مع الحاج عبد القادر ريثما أعود.

استاء الحاج عبد القادر من عباس، وقد حملت أقواله بعض الأمر والنهي،

وكأنه صاحب المحل.

قال الحاج عبد القادر بحزم:

- لا تتأخر، يا عباس، فى تحميل البضاعة، عليك أن تعود بأسرع وقت

فأنا أنوي المغادرة لبعض شؤوني.

لما غادر عباس كانت الفرصة مواتية للحاج ليتأملها من جديد. أعجبه جسدها الغض، وطلتها الساحرة. لاحظت هى تحديقه وانبهاره فارتبكت قليلاً

ففاجأها بسؤال لم تتوقعه:

- ما السعادة في رأيك؟ ومتى يكون الإنسان سعيداً؟ هل تتبع السعادة من داخلنا ؟ هل تفرضها الظروف الموضوعية والخارجية والمادية علينا؟

ابتسمت مدارية الارتباك والمفاجأة، وأطرقت قليلاً، لتسعف نفسها بوقت إضافي للتفكير والرد على السؤال المفاجئ أطرقت كما لو أنها تريد اصطياد

الجواب المناسب، فأجابته بسؤال:

- الست سعيداً يا حاج عبد القادر ، بحياتك؟ وإذا كنت كذلك، فإنك تدرك معنى السعادة بلا شك، واعتقد أن سؤالك هو سؤال العارف، الذي يقصد به اختبار فهم الآخر للحياة.

- في الحقيقة، قد توهمت لزمن طويل، أن السعادة في جمع المال، وقد تبين لي مؤخراً أن مفتاح السعادة لا يكون عن هذه الطريق، وأنا الآن أبحث عن

هذا المفتاح، فلا تستغربي سؤالي الذي ألقيته إليك بشكل مباشر، ودون تمهيد، أو تداع للأفكار، ومن أول لقاء أيضاً، وسأحدثك فيما بعد، عن كل ما يجول في خاطري. أنا في بداية تغيير، يمكن أن أسميه رحلة البحث عن الفردوس المفقود، ولكنني أريد قبل ذلك، أن أعرف رأيك في هذا، فاعذريني.

سكن روعها، وبدأت الجدية تغزو ملامحها، مع شيء من حزن خفيف وأسى.

قالت:

- أعتقد أن الظروف تملي علينا مسيرة حياتنا، فليس كل ما نرغبه في الحياة، يتحقق أحياناً ؛ تفاجئك الحياة بأعباء لم تكن مستعداً لها، وأحياناً لا قبل لك بها، ولكن الله أعطى الإنسان مزية التحمل. اعتقد أن السعادة نسبية، وأن لكل إنسان مفتاحه الخاص للولوج إلى عالمها أحياناً يخفق، وفي بعض الأحيان يتحقق الأمل، وقد تستغرب يا حاج عبد القادر، إذا قلت لك: إن السعادة عندي، تعنى التضحية بأيام عمري من أجل إسعاد إخوتي، وتأمين حياتهم لأنني مسؤولة عنهم. ليست هذه أحجية، لأنك إن كنت أنانياً، وضحيت بمستقبل إخوتك من أجل سعادتك فسوف تندم، ويخزك ضميرك طيلة ما تبقى لك من الحياة.

- لم أفهم الفكرة تماماً، وإنما لمست معنى التضحية، التي هي فكرة رائعة بل بطولية، وإن مساعدة الإخوة مصدر سرور وارتياح، ولكني أجد أن ذلك لا يتعارض مع سعادتنا، فلماذا لا تتضامن سعادتهم وسعادتك بمسار واحد.

حبذا لو شرحت لي الأمر بالأمثلة والوقائع.

- الشرح يشرع أبواب حياتي كلها أمامك، كنت ستعرفها يوماً، لكن الآن بعد سؤالك جاء وقت بسطها، لقد فقدت أبي منذ خمس سنوات، وفقدت أمي منذ أكثر من سنة، فوجدت نفسي أباً وأماً لثلاثة إخوة قاصرين، تركهم القدر أمانة لي ولما يشتد عودهم.

حزن الحاج عبد القادر مما سمع، وانطفأت شموع كانت مشتعلة أمامه.

- لقد حزنت يا بنتي لسماع ما قصصت، وأريد التفصيل.

- كان أبى مدرساً في مدارس دمشق الثانوية، وكانت والدتى أيضاً معلمة صف اقتع كل منهما بالآخر، فتزوجا. كانت السعادة تغمر بيتنا، وكنت ابنتهما البكر، اعتنيا بي كا حسن ما يكون الاعتناء، ولم يبخلا بالتوجيه بعد

بلوغي العاشرة، فكرا مجدداً بالإنجاب، قالت أمي:

- من حقنا أن يكون لنا ولد ذكر، إلى جانب نور الصباح.

وافقها أبي وبدأ الإنجاب، في كل عامين يأتي طفل، وقد بلغت الحصيلة ذكرين وأنثى، عندها توقفا، عمر ورشاد ومنار قاصرون، يحتاجون الرعاية والإنفاق.

كان والدي يقول:

أنت يا نور الصباح، مؤهلة لأداء دور الأم، لأن عمرك العقلي أكبر بكثير من عمرك الزمني، ولما تكون أمك في عملها مارسي على إخوتك هنا الدور، فترسخ قوله في ذهني، ومارست التوجيه والأمر، ولم يعترض على ذلك أحد، وعندما تخرجت في جامعة دمشق، فرع الاقتصاد السياسي، شجعني أبي

على دراسة الماجستير لنيل الدكتوراه، فوعدته.

في أحد الأيام استيقظ صباحاً، منزعجاً يتلمس قلبه، قال لوالدتي:

- أشعر بانقباض، وكان على صدري صخرة، نفسي يضيق كأني أصد إلى السماء.

قالت أمي :

- لا تذهب اليوم إلى المدرسة، خذ إجازة من المدير بالهاتف.

كان أبي يحب عمله ويعشقه، فذهب إلى الثانوية، وبينما كان يلقي التدريس

هاجمته جلطة قاتلة، فوقع أمام سبورته صريعاً، واستدعى المدير الإسعاف، لكنه وصل إلى المستشفى وقد فارق الحياة، لقد عمل الآخر ثانية في حياته ثم مضى.

بعد موت أبي أنت أمي دور الأب، في الوقت الذي تأكد فيه دوري كام ومن وقت لم يرحمنا فيه القدر، لأن سرطان الدم عشعش في جسد أمي، فارت تاركة لي دور الأب والأم.

كنت على وشك الزواج من زميل خطبني، ولبسنا الخواتم، يومها شعرت بسعادة غامرة، ولكن موت أمي فيما بعد، وضعني أمام الخيار الصعب، فضحيت بسعادتي من أجل إعالة إخوتي وتربيتهم، واعتذرت من خطيبي الذي لحبيته، فتفهم موقفي، وكانت تلك التضحية، مصدر سعادة لي ما زلت أعيشها.

قال الحاج عبد القادر :

إنني حزين من أجلك يا نور الصباح، أنت بشعورك الإنساني النبيل،

قدمت أروع تضحية بقناعة، ومع ذلك شعرت بالسعادة....

وقبل أن يكمل الحاج عبد القادر حديثه دخل عباس لاهثاً وهو يقول:

البضائع أصبحت داخل المستودعات.

قال الحاج عبد القادر :

تعال واجلس أريد أن أسألك سؤالاً، أطرحه دوماً على أصدقائي:

- ما سؤالك ؟

اين أجد مفتاح السعادة؟

ضحك عباس وقال:

- أما زلت تبحث عن ذلك، وقد قال لك المتصوّف أبو العتاهية: إنه في

داخلك ولديك قدرة تحقيقها.

- إنه يقول اترك كل شيء واتبعني، ومعنى ذلك أن أصبح شحاذاً مثله.

ضحك عباس وقال:

- لكل مفهومه عن السعادة

- أريد مفهومك الخاص عنها !

بدت على عباس هيئة أكثر جدية ورصانة، وقال:

- السعادة فى رأيى تشبه النجاح، وهى أن يشعر الإنسان بضخامة قدراته مع تعاظم مسؤولياته، وأن يكون له هدف يحكمه العقل والمثل العليا.

- أراك يا عباس، قد تلت حظاً من الثقافة والفكر بعد أن تركت السوق والنساء.

- تعلمت من زوجتى هواية قراءة الكتب، وساعدتني تلك الهواية على قتل الوقت فى الوظيفة كنا غالباً تحتار كيف نبند وقتنا، مرة بالكلمات المتقاطعة ومرة بالأحاديث التافهة، ولم يكن العمل الجدي من أهدافنا، فالرقابة متراخية، فوجدت فى القراءة أفضل وسيلة لهدر الوقت، فادخرت المعلومات

وحزت الثقافة.

قالت نور الصباح

- أعجبني تعريفك يا عباس، إنه تعريف أقرب إلى الموضوعية والواقعية.

قال الحاج عبد القادر :

- لكنه فلسفي يحتاج إضاءة وأمثلة واقعية.

قال عباس:

- سأوضحه من سيرة حياتك، يا حاج عبد القادر، وأرجو ألا تعتب علي. أنت تملك إمكانات كبيرة من المال، لكنك تفتقد الهدف، إن جمع المال وتخزينه لا يصلح أن يكون هدفاً لأن المال وسيلة، وقد برمجك والدك البرمجة الخطاء ولم تستطع الخروج منها. كنت تسوّق البضائع الأجنبية، فحققت للغريب هدفاً وروجت بضاعته وكنت مع والدك تستثمر في الربا والفائدة، فكنت الرجل الصندوق، كما قال لك الطبيب النفسي يوماً، كان عليك أن ترتقي وتعطي المراحل حقها فتعيش في زمنك المفترض، وأن يأخذ مالك دوراً اجتماعياً، فتنتج السلع وتشغل أبناء بلدك، وتجمع مالاً حلالاً يعود عليك بالسعادة، لأنك فاعل منتج، اعذرني إذا قلت: إن عندك ضخامة إمكانات، لكنك كنت تفتقد تعاظم

المسؤوليات، فالهدف عندك مفقود، وإذا وجد لا يحكمه العقل، ولا المثل العليا، عند ذلك فقدت السعادة، ولا تزال تبحث عنها.

انزعج الحاج عبد القادر وحزن، ووصل به الأمر درجة الإحباط، فانخفضت معنوياته، لكنه لم يثر في وجه عباس، أو يظهر أمارات الغضب، رغم التقريع الواضح، ربما لأنه اقتنع بصحة تحليل عباس. فقال باستسلام:

- وماذا كان على أن أفعل؟

قالت نور الصباح

- اعتراني لما سأقول :

كان عليك يا حاج عبد القادر، أن تنشئ مصانع للعزل من القطن السوري وأن تصدر إلى الخارج الألبسة القطنية، التي هم يحتاجونها، إن قطننا مرغوب، وبسهولة يصدر إلى أرقى الدول، بدل أن تغطي بضائعهم أسواقنا، نملأ نحن لسواقهم ونشغل عمالنا والعاطلين من أبناء بلدنا، وكل ذلك تحت سلطة العقل، والمثل والهدف المبدع.

- فكرة ممتازة، لقد أوحيتما إلى بأفكار جديرة بالدرس، هيئي يا نور الصباح، دراسة أولية عن هذه الفكرة، وعن مصانع الغزل، لنتناقش فيها فيما بعد، أما الآن فإني سأغادر.

ثم ودعهما وانصرف.

في الطريق سأل نفسه : (كم أضعت من سنين سدى؟ بل أضعت عمري كله، أضع القرش على القرش ولا شيء غير ذلك، وها هو ذا عباس الذي كنت أرثي لحاله يفوقني ثقافة وعقلاً، وأصغي إليه مضطراً، ونور الصباح التي هي في عمر ابنتي تمنحني فكرة صائبة غفلت عنها، وكان بإمكاني تنفيذها، ووضعها كهدف لحياتي، فيصبح مالي اجتماعياً يتنفس، أستفيد وأفيد، كما قالت نور الصباح).٥٥

وصل البيت. كانت سميرة قد غادرت لاحظ وحشة، فشعر بقيمة البيجا التي كانت تضفيها على البيت، ثم انتابته كآبة، أبعدها بتخيل نور الصباح وقوامها الممشوق والألق المرافق لحديثها الطلى المفيد، كم كان مخطئاً بإبعاده المرأة عن مجاله الحيوي.

قال في نفسه:

لا بد أن تكون المرأة المفتاح الحقيقي للسعادة، مثلما كانت امرأة عباس مفتاح تغييره الذى بدا اليوم، كانت المرحومة شهناز مطيعة، ولكنها لم تقدم لي أي أفكار، وكانت في كل يوم تزداد شحماً ولحماً، حتى غدت كالبرميل، حتى سميرة درويش زوجة دباح (البقر حركت شيئاً راكداً في داخلي وشوقت لي الحياة رغم كل ماسبها وأحزانها، ولكن المرحومة شهناز لم تحرك في فيما مضى، أي طموح بل كانت تجرني نحو الكأبة، في مستنقع الحياة وها هي ذي زوجة عباس، تحضه على قراءة الكتب والثقافة، وأنا لا أقرأ حتى الجرائد، ولم أتعلم استثمار الحاسوب كما يجب، وكنت إذا ذهبت إلى صلاة الجمعة، استعجل في نفسي الخطيب، وأتمنى أن ينهي موعظته بسرعة. لا أقف عند حكمة الوعظ، ولا أتدبر القراءات، ولا أفهم المرامي والغايات، والآن قد أصبحت في أواخر الأيام، فهل استطيع تدارك ما فات؟).

٥

نهض من فراشه عند السادسة صباحاً، على غير عادة نشيطاً مرحاً ممتلئاً حيوية وأملاً.

لبس (روب الديشامبر) ونزل إلى حديقة القصر، كانت الخيوط الأولى من أشعة الشمس تلامس رؤوس الأشجار الباسقة، وتحضن المرج بحنان دافئ.

العصافير تغني بفرح، وتنتقل من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى شجرة. لم يكن فيما مضى ينتبه إلى تفاصيل الطبيعة وألحانها التي تتكرر كل يوم. التفت شاهد الأقحوان في الحوض الرخامي بتلات الأزهار مبتلة بالندى مزهوة بالضياء. سطعت أنفه نفحات من الياسمين الذي عرش على السور، فامتلا صدره بالأريج وغزته سعادة لم يعرف مصدرها هو الآن فراشة خرجت من شرنقتها، وعليها أن تطوف بكل أزهار الأرض، فهل ما زال في العمر متسع؟

ولما تقدم باتجاه السور الشرقي فاجأه البنفسج على أرض ناهضة كرابية صغيرة وقد ارتفعت أزهاره مطرزة الخضرة الزاهية، وحط عصفور أنيق على حافة الحوض، كأنه يدعوه إلى التمتع بهذه الجنة الأرضية، فهل الجنة شعور نفسي قبل أن تكون قطعة من مادة الأرض ؟! هل كان الحاج عبد القادر، يفتقد الروح ليعرف أن في حديقته عرساً يومياً للطبيعة، وأنه لم يعرف مكمن السعادة، كيف عاد الوعي إلى روحه؟ ومن أي سبيل دخل؟ قطف وردة (جورية) حمراء، وعاد بها إلى

غرفته، فوضعها في كأس من (الكريستال) الأنيق، حضر القهوة بنفسه وتنشق رائحتها الزاكية فبدت له أنذ طعماً.

تأمل قليلاً، ثم قال في نفسه: اليوم تبدأ حياتي من جديد.

عند الثامنة حضرت سميرة، كان شيئاً قد تغير فيها، ليس في اللباس فحسب. لما خلعت المعطف برز الجسد الرشيق فى ثوب فيروزي غطته أزهار بيضاء ناعمة، كم اغتصب دباح) البقر هذا الجسد! اغتصاب شرعه الصك هو اغتصاب مباح كان صدرها ناهضاً، وخصرها نحيلاً، وظهرت خصلة كستنائية من شعرها، بعيدة عن سيطرة غطاء الرأس الأبيض، بدت له وكأنها اقل عمراً، كأنها في العشرين وهي بنت الثلاثين، وقد أشرق وجهها بألق نضير، ليس فقط بفعل الزينة الخفيفة وأحمر الشفاه، الذي لا يكاد يبين، بل يفرح داخلي زين وجهها وأجج روحها، وجلاها من صدأ الأحزان، جملها من الداخل والخارج،

وبعث فيها النضارة.

قالت بعد تحية الصباح

- أراك شربت القهوة مبكراً ؟

- استيقظت عند السادسة بطاقة روحية عالية، دفعتني للمشي في الحديقة، فرأيت الأطيار والأزهار وكأني أراها لأول مرة، كنت أتتبع الفراش وأراقب العصافير، وأستدفئ بأشعة الصباح، كان الجو أسراً ومسكراً، لقد نعمت بنوع من السعادة لا يوصف.

قالت:

- إذا ساعد لك الفطور، لتشرب بعده الدواء.

كان الحاج عبد القادر يعاني منذ فترة من عوارض ضغط خفيف، وقد وصف له طبيب القلب دواء مدراً، مع بعض الفيتامينات، وهو في الحقيقة لا يشكو من مرض (فيزيولوجي) ربما كانت مشكلته نفسية بالدرجة الأولى، ربما شعر أنه لا يحمل رسالة، ولا يسعى إلى هدف، وربما لأنه افتقد الحب، وفي حاجة إلى أن يكون حراً كالعصافير، بعد أن وضعه أبوه كقطار على سكة من البيت إلى الدكان، ومن الدكان إلى البيت، وما العارض النفسي الذي ألم به، منذ سنوات خلت، وتمثل في مله من الحياة وكرهه لروتين آسن، كاد أن يدفعه إلى

الانتحار؛ إلا العلة الحقيقية والخواء الروحي، ولما بدأ يغير نظرته إلى الحياة، أو بالأصح، إن الظروف المستجدة هي التي بدأت تغيره، بعد أن أوحى إليه الطبيب النفسي بأن عليه بالحب الذي هو السر، وهو الدواء، وأن عليه البحث حتى عن حب صوفي، وعن عمل ذي هدف، يجعله جديراً باحترام نفسه، ومن ثم احترام الناس له، ليس كصندوق مستغل، وإنما كمنتج له كيان، وربما أدى وجود نور الصباح وعباس الداعور، حتى سميرة دوراً في الإيحاء النفسي له بأن عليه أن يتغير، ويبحث عن الهدف الجديد، فصار التغيير يزحف رويداً رويداً، ويغزوه وهو له مستسلم.

حان وقت صلاة الجمعة، أعطى تعليماته لسميرة من أجل تجهيز طعام الغداء، فقد يحضر ابنه وابنته، فيشاركانه الطعام.

- سأذهب الآن لتأدية صلاة الجمعة، سأعود لأرى كل شيء جاهزاً.

- كما تريد.

لبس ثيابه، وأخذ زينته، وتطيب بعطر فرنسي فاخر، فانتعش وفرح.

في خطبة الجمعة، جلس الحاج عبد القادر مستمعاً إلى الخطيب، بيقظة وانتباه هذه المرة.

قال الخطيب فيما قال في معرض خطبته (باب العودة مفتوح دائماً، والاختيار متاح للعباد، وقد أعطى الله العقل للإنسان، ونوره بالكتب والصحف عن طريق الرسل وقال عز من قائل:

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا فالباب مفتوح دائماً، وأحوال الناس تتغير عندما يغيرون ما في أنفسهم، لكن بعضهم يتأخر فيغير حياته في أواخر أيامه، وهذا جائز وقد جاء في الحديث الشريف

(فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَل أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إِلَّا ذِراعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ

فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ).

نسأل الله حسن الختام....

واستمر الخطيب فى موعظته، في حين تاه الحاج عبد القادر في أفكاره. وانفصل عن المنبر، توقف ملياً عند فكرة التغيير، التي قد تأتى فى آخر الأيام وتكون منتجة لأثارها، وتعصم صاحبها أو تهوي به إلى مكان سحيق، أصيم يتدبر ما يسمع من كلام، ويناقشه بترو، وفى النهاية يسقطه على نفسه، ويبحث عن التغيير المنشود. اقيمت الصلاة، وخرج الناس من المسجد، وفي الطريق اليعقوبي، فصافحه وتابعا المسير . صادف جاره أبا إبراهيم .

قال أبو إبراهيم:

- سمعت قصة من رجل مصري، وكنت يومها في القاهرة لبعض

الأعمال، حدثني الرجل فقال:

كان في المقطم رجل عابد متصوف، انقطع للعبادة أربعين عاماً، أمضى عمره بين جدران زاوية، لبس أخشن الثياب، وأكل الخبز الجاف مع الزيت، لغاية قهر النفس، لتدخل في الملكوت، بعد أربعين عاماً من التعبد خطر

له خاطر، لعل شيطاناً زين له ذلك فقال :

(حرمت نفسي من متع الدنيا، أمضيت أربعين عاماً في الشقاء والعذاب، من أجل التقرب من الملكوت الأعلى، فلم يقترب مني الملكوت، أضعت سنوات عمري هدراً، في حين كان الشبان يمرحون في شارع الهرم، ويأكلون أطايب الطعام وينامون مع أجمل النساء، ألا يحق لي بعد هذا العذاب الطويل المقيم، أن أنزل إلى شارع الهرم فأتمتع في أواخر الأيام، كما تمتعوا هم في أولها ؟ وأظن أنه يحق لي ذلك لأن الله يقول: وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِن الدنيا)، في منتصف الطريق، التقى بعالمة) من إياهن، كما تدعى في مصر أمضت في شارع الهرم أربعين سنة، تمتعت فيها بكل المسرات، وانغمست في الموبقات وملت من الإثم والخطايا، فأرادت أن تصعد المقطم وتتوب، وتنقطع إلى العبادة في زاوية، تلبس أخشن الثياب، وتأكل اللقمة السوداء، فتطهر من الأمام والخطايا.

حكى كل منهما قصته للآخر، ونيته في التغيير لما يراه الأفضل، ولما ينقصه في الحياة. أعطاها مفتاح الزاوية، لتنقطع إلى العبادة، وأخذ منها مفتاح شقة الهرم ليتفرغ للهو والمسرات.

- هذه القصة تذكرتها يا حاج عبد القادر، عند إلقاء الشيخ خطبة الجمعة.

قال الحاج عبد القادر :

يبدو أن الإنسان يسعى دائماً لاستكمال ما فاته من الحياة.

قال أبو إبراهيم:

- أنا فهمت غير ذلك يا حاج عبد القادر.

- وماذا فهمت ؟

- فهمت أن على الإنسان أن يكون متوازناً، غير متطرف، فالزائد أخو الناقص كما يقولون، تعبد ربك في أوقات، ومارس الحياة بتفاصيلها في الأوقات الأخرى، وإذا أردت أن تعرف آيات الله ومعجزاته، فستجدها في كل خطوة تخطوها في زهرة برية تنبت في شق صخرة تبهج النظر، وتمد النحل بالرحيق وتعطى ما يفترض أن تعطي دون زيادة أو نقصان، دون إفراط أو تفريط أتجول في الغابة فأجد الطيور سعيدة مغردة، وليس عندها قوت الغد، وهي سترزق قوتها حتماً في الغد، ولم يعثر أحد على طير مات من الجوع، والإنسان يعيش في فقر مخافة الفقر نفسه، يقتر على نفسه مع أنه يملك المال، وهو وسيلة ممتازة للتمتع، ويحكم كل ذلك تطرف غير مقبول.

أعجب الحاج عبد القادر بتفكير أبي إبراهيم مع أنه لم يؤت كثيراً من

العلم، فقال له :

انقرأ كثيراً من الكتب يا أبا إبراهيم؟

- لا ليس كثيراً، ولكني أنظر إلى الحياة بعين يقظة شاملة، استمتع بالبلاج الفجر وشروق الشمس، تهزني أزهار الليلك ولبيلسان، فأعرف أنها مظهر يدعوك إلى الإيمان بالله فتزداد طاقتي الروحية، أحسن إلى الفقراء فيرتاح

ضميري وأشعر بالنماء، أرتاد المجالس، واسمع للكلام، ولكنني لا أخذ أفكار غيري أو اتبناها دون تمحيص ذاتي، وقدح للفكر والعقل، وأحياناً توحي إلى الأفكار بأفكار أخرى، فالأفكار أحياناً تفرخ الأفكار.

- إذا ذهبت إلى مجالسك تلك، فلا تنس أن تأخذني معك مادامت تلك

المجالس طريقاً لشحن الروح، وقدح الأفكار وتفريخها.

- لكنك يا حاج عبد القادر، مشغول دائماً بدكانك.

- سأتيع نصيحتك، وسأتوازن، فنصف وقتي للدكان، ونصفه الآخر

المعرفة الحياة، التي غفلت عنها أربعين عاماً.

كان أبو إبراهيم قد وصل داره، فاستأذنه الحاج عبد القادر بالمتابعة، برغم

أن الأول قد دعاه إلى ضيافته فقال:

- سأزورك في الأيام القادمة، وستراني كثيراً. ثم ودعه وتابع المسير.

عندما وصل باب القصر، كانت سيارة ابنه الدكتور سليمان تريض قرب الباب، فدخل الدور الأرضي، واستقبله لدى وصوله ابنه وابنته، كانا في المطبخ

يشرفان على تحضير سميرة للطعام، رحبا به وعائقاه... فقال :

سنتناول الطعام جميعاً في غرفة الطعام، أعدي الخوان يا سميرة.

-ولما دخلوا الغرفة كانت أطباق المقبلات مرصوفة، فجلسوا ووضعوا الفوط البيضاء، وكانت سميرة في هذه اللحظة قد جاءت بالحساء، وبدأت تصبها في الأطباق الثلاثة.

قال الحاج عبد القادر :

- أنت أيضاً يا سميرة ستتناولين الغداء معنا على هذه الطاولة، فانتي

بصحتك.

نظر الدكتور سليمان إلى أخته نظرة ذات معنى، فليس من عادة الحاج

عبد القادر أن يجلس الخدم إلى مائدته، وليس من الأصول أن تجلس خادمة مع أسيادها يتناولون الطعام نفسه على المائدة نفسها، والشكليات يؤخذ بها في مجتمع الحاج عبد القادر، لما غادرت سميرة إلى المطبخ، لجلب الوجبة الرئيسة

قال الدكتور سليمان، مخاطباً أباء:

لا تفسد أخلاقها بالدلال، فلا يجدر بخادمة أن تتناول الطعام مع أسيادها، على الطاولة نفسها، وأنت نفسك لم تسمح للخدم يوماً بفعل ذلك.

نظر الأب إلى ابنه شزراً وقال:

من الآن وطنوا أنفسكم على تغيير في عادات أبيكم، إنها مخلوق مثلنا، وعلينا أن تشعرها بإنسانيتها، لا أن نذكرها بدونيتها، ولا أعتقد أن ذلك يدخل في باب الدلال.

اعتبر سليمان من أبيه وقال:

- ما قصدت إزعاجك يا أبي، وإذا كانت هذه رغبتك، فلا يضيرنا أن تجلس سميرة وتأكل معنا، المهم سعادتك وسرورك.

أجاب الأب بلهجة أقرب إلى التأنيب والتقريع:

- تتشدق بالمساواة، وتطبق التعالى، تركع وتصلي، ثم تصعر خدنا للعباد، ونتعالى عليهم، نذهب إلى السوق فنكذب وندلس، وتحلف الأيمان المغلظة كذباً، من أجل ترويج بضائعنا وتجارتنا، وأحياناً يقوم أطباؤنا بعمليات جراحية لا لزوم لها من أجل استنزاف مريض، إننا نعيش ازدواجية مقيتة في السلوك، ولقد قررت

من الآن ألا أفعل ذلك، وألا أجامل، وأن أتغير.

لم ينبس سليمان بكلمة، في حين رددت ابنته القول :

- إن ما تقوله يا أبي هو الواقع الحقيقي الذي نعيش، ازدواجية غير مسوغة، ومراءاة في السلوك، ما ينم عن عقل جمعي يحتاج إلى إعادة هيكلة

تتذرع بالدين أحياناً، ونحن أبعد ما تكون عنه، مصلحتنا فوق الجميع.

عادت سميرة من المطبخ، تحمل الوجبة الكاملة من لحم ورز ودجاج محمر، وغير ذلك، ووضعت الطعام على الطاولة، ووزعته على الصحون، ثم تتحت جانباً وظلت واقفة.

- لماذا تقفين وقد أمرتك بالجلوس وتناول الطعام معنا ؟

- سأكل فيما بعد على طاولة المطبخ.

بل الآن تجلسين معنا ! وتتناولين طعامك.

جلست على استحياء، على النصف الأمامي من الكرسي، ووضعت في صحتها بعض الطعام، وصارت تأكل ببطء شديد، يلفها خجل سافر.

قال الحاج عبد القادر، مخاطباً ابنه:

- أنت تعرف يا سليمان، أنه لا يوجد في مكتبي هنا جهاز حاسوب، مع أنك في يوم ما قد علمتني أصول استثماره وتشغيله، وأريد منك أن تعين لي بدءاً من الغد، مهندساً في المعلوماتية، خبيراً في تدريس وتعليم الحاسوب، وبمعدل ساعتين في اليوم من التاسعة إلى الحادية عشرة ظهراً، ليعلمني مجدداً ما نسيت، حتى أتقنه إلى أبعد الحدود، وأعلم أن الحاسوب قد أصبح منجماً وتبعاً ثراً للثقافة. فاجأني عباس بثقافة لم أعهدها فيه، نتجت عن تراكم القراءات، وقد حضته زوجته على التثقيف والمطالعة، ولقد وظفت في المحل فتاة تحمل الماجستير في الاقتصاد السياسي، وتحضر للدكتوراه عرضت على فكرة إنشاء مصنع لغزل القطن وتصنيعه على شكل ألبسة داخلية متنوعة، وعالية الجودة للتصدير، وأعجبت بالفكرة وتبنيتها.

قال سليمان مرحباً:

هذه فكرة ممتازة، واعتقد أن التمويل موجود، لكنك تحتاج الآن المدير الفني والقاعدة المادية للمصنع، ولكن قبل ذلك لا بد من دراسة الجدوى الاقتصادية، ولي صديق هو الدكتور عبد الرؤوف المسلماني، وعنده أكبر مكتب

الدراسة الجدوى الاقتصادية للمشاريع.

- كلفت الآنسة نور الصباح بإعداد دراسة أولية، وبعدها يمكن التوسع ودراسة الجدوى، ولكن أذكرك ثانية بمدرس الحاسوب، وأن تشتري لي جهاز (لا بتوب) من أحسن المواصفات، ليكون رفيقي الدائم طيلة الوقت.

من الغد سيكون المدرس والجهاز عندك، وإنني أقدر عالياً همتك الجديدة التي جاءت بعد ملل وخمول.

على الإنسان أن يتطور باستمرار، كما عليه أن يتمتع بالحياة، ويسعى نحر السعادة والحب. وقد غاب عني ذلك فترة من الزمن، لكني عدت واستدركته.

ابتسمت ابنته، ثم حاولت إخفاء ابتسامتها، لكنها غمرت أخاها، عندما ادار والدها ظهره ناهضاً عن المائدة، متجهاً إلى المغسلة، وقد شبع، وحينما ابتعد قليلاً، همست في أذن أخيها، وقد استقرت سميرة في المطبخ.

- اراهنك أن سميرة ستترقى في صعود السلم لتصبح زوجة أبيك، أو عشيقته على الأقل، فتهانينا من الآن!

- كل شيء في هذه الدنيا العجيبة قابل للتحقق، وربما أخسر الرهان إذا عاكست رأيك، ولذلك، التهاني مشتركة وضحكا

- إذا أنت معي في الرأي، فلننتظر المستقبل والتطور الذي سيحصل.

عادت سميرة لتنقل ما تبقى من طعام وصحون فارغة، بعد أن انتهى الجميع من تناول غدائهم الذي كان أشبه بغداء عمل.

بعد القهوة، غادر ابنه وابنته إلى منزليهما، وصعد الحاج عبد القادر إلى غرفته في الدور العلوي، وتبعته سميرة التي استأذنت ودخلت غرفته.

- لقد أكرمتني اليوم بلطفك، وبإصرارك أن أشاركك تناول الطعام مع لرتك، فطغى على شعور من الفرح والامتنان، لم أشعر به من قبل وتمنيت لو أستطيع رد الجميل لهذا التصرف النبيل، ولكن حالي لم يسعفني، فقلت ليحسن النطق، إن لم يسعف الحال.

- أنت يا سميرة، فتحت عيني على الواقع، بعد أن كنت في عالم هو أشبه بالقوقعة، تعاطفت معك بداية، ولكني الآن أشعر بما هو أكثر، إن وجودك قربي يؤنسني، ويدخل الفرح إلى قلبي، وهذا شعور لم أعهده من قبل، وأشعر به الأول مرة في حياتي.

- إن ما تقوله وصف دقيق لحالي فانا انتظر الصباح بفارغ الصبر.

لأكون بين يديك وأنعم بحديثك، وارتاح عندما أبتك معاناتي الماضية والحالية.

- أريدك أن تتغيري كما أتغير، وتتطوري كما أتطور، فأنت تملكين الجمال والذكاء، وأنا جاهز للمساعدة.

- أريد منك أن تسمح لى بحضور درس الحاسوب معك لا تعلم استثماره وتشغيله، ولن يكون هذا على حساب شغلي في المطبخ أو ترتيب البيت.

متحضرين وسأعطيك دفتراً وقلماً، لتسجيل القواعد وفحوى الدرس، ولكن هل تنقين الكتابة بسرعة.

- أتقنها وخطي جميل، وكنت في المدرسة أحصل على الدرجة الأولى في صفي طيلة السنوات الست التي قضيتها فيها، ولكن انقطاعي كان بأمر من أبي سامحه الله، وبالمناسبة، إنني أقرأ في المساء بعض الروايات التي تجلبها أختي من صديقة لها، ربما لأن هذه الروايات تنقلنا إلى الأحلام، وتنسينا الواقع المرير.

أحسنت يا سميرة، ويبدو أنك لا تضيعين وقتك، عسى أن تتحسن

الظروف مستقبلاً!

عندما نهض، وقفت سميرة واقتربت منه، لدرجة أنها التصقت به، ثم قبلته

من جبينه كتعبير محسوس عن شكرها. فوجئ بحركتها غير المتوقعة، ولكنه فوجئ أكثر عندما وجد نفسه يمسك خصرها النحيل، ويضمها إليه ثم يقبلها من وجنتيها، ويقول:

- أنت التي أعدتني إلى الحياة، فخرجت من التابوت.

تراجعت إلى الخلف لاهثة، لا من تعب، ولكن ربما من خوف أو حب فاجأها، وأطرقت بعينيها، ثم رفعتهما إليه قائلة:

ارجو الا تفهمني خطأ يا حاج عبد القادر، إنما كنت أعبر لك عن شكري العميق، وقد عجز لساني، ففعلت ما فعلته.

-لا عليك أنا أفهمك تماماً، وحسناً فعلت، وقد قابلتك بما يجب أن يكون، ولنترك تطور ذلك للأيام.

استأذنته بالمغادرة لمتابعة أعمالها في البيت، في حين جلس هو على كرسيه، يستعرض ما جرى، إنه يشعر لأول مرة بشعور الحب، أرض عطشى منذ قرون، تساقط عليها مطر ناعم، ففاح عبير الأرض شوقاً والتياحاً، المزيد من الارتواء. الحاج عبد القادر يحب زوجة (دباح البقر) أو بالأصح طليقة ذاك السجين، وهي الآن خادمته التي تغسل وتطبخ وتقشر البصل، ومع ذلك لا يجد في ذلك غضاضة من هذا الشعور ؟!

أهو الحب الذي خفت شجونه؟! يوحد بين البشر، ويساوي بين الناس وأي شعور لذيذ انتابه من ضمة استمرت لثوان، ولكنها روت قليلاً بعض عطش السنين، ربما جرى ذلك بعفوية، ولكن روعة الحدث في عفويته البكر. قال الطبيب: ابحث عن الحب الذي لا تعرفه، الذي حرمت منه لأنك ترهبنت على حب المال، ففي ذلك شفاؤك).

ها هو ذا الآن قد أخذ يتماثل للشفاء، ويقبل على الحياة، فبأي سبب حصل هذا، إذا لم يكن بتلك العاطفة ؟! المهم: إنه يريد أن يتغير ويعوض سريعاً ما فات.

استلقى في سريره مستسلماً لأحلام وردية، فالغد أجمل مما كان يتصور.

صباح السبت، جاء ابنه الدكتور سليمان يحمل حاسوباً من نوع (اللابتوب) وبرفقته مدرس الحاسوب، قال سليمان

- هذا الحاسوب من عندي، وكان قد أهدي إلى، وهو محفوظ في خزانتي ومن النوع الجيد. نسيت أن أعرفك بالأستاذ يمان الأغا، الذي سيتولى تدريسك علم الحاسوب، وسيحضر كل يوم في مثل هذا التوقيت إليك.

رحب به، وأجلسه في غرفة المكتب، وكانت سميرة قد أحضرت القهوة. فشربوها معاً، ثم استأذن ابنه بالانصراف، وانصرف.

استعد الأستاذ يمان للبدء بالدرس الأول، وكان شاباً في الثلاثين طويلاً أشقر ، نا جبهة عريضة، ووجه بشوش مسالم خال من التعبيرات.

قال الحاج عبد القادر:

- ما أروع الحاسوب وما أذكاه! بثوان يعطيك أغزر المعلومات.

بل ما أروع الإنسان الذي اخترعه إن الحاسوب يحتاج أربعين دقيقة،

التحليل ثانية من مخ الإنسان، وهذا ما أثبت عن طريق حاسوب فائق السرعة. ان مخ الإنسان هو الأعجوبة، وآية من آيات الخالق، وإلى الآن لم يستخدم الإنسان إلا عشرة من المئة من دماغه، فتخيل عندما يستخدمه كله.

- معك الحق يا أستاذ

- هذا ما أثبته العلم ولا يد لي في ذلك !

- ستحضر معنا مدبرة المنزل السيدة سميرة الدروس، لأنها تتوق لتعلم الحاسوب، وهي إنسان حرمته الظروف من العلم، ولكنها تتقن القراءة والكتابة واستمرت في المدرسة حتى الصف السادس، وتحب التطوير والارتقاء.

قال يمان:

- كما تريد يا حاج.

كانت سميرة تسمع كل ذلك، وقد حضرت الدفتر والقلم. وبدأ الدرس وسميرة تسجل.

عندما انتهى الأستاذ يمان من درسه صار يسأل سميرة ليعرف مدى استيعابها، فكانت تجيب بدقة تنبئ عن فهم وذكاء.

قال يمان:

- حرام أن تهدري ذكاءك دون متابعة العلم، لأنه نقطة قوتك، ويا ليتك تابعت التعليم الذاتي الحر، فالجميع يلجأ إليه عندما تمنعه الظروف من متابعة التعليم النظامي، وفي أوروبا الآن تنتشر الجامعات الافتراضية، للذين يعملون في أثناء النهار ويدرسون ليلاً.٦٨

قالت:

- وكيف يكون هذا ؟

تدرسين في وقت الفراغ في البيت، وتقدمين امتحان الشهادة في المركز في اليوم المحدد فتنالينها. وتتابعين بالأسلوب نفسه حتى في الجامعة نفسها، أنا متأكد أنك ستنجحين بتفوق. إذا أردت فسآتيك

غداً بكتب الشهادة المتوسطة للصف التاسع، وأسجلك في شعبة الامتحانات ليكون لك مقعد تقدمين من خلاله الفحص في نهاية العام.

فرحت سميرة جداً، وقالت:

أنا الآن في الثلاثين، وأخاف أن أكون قد كبرت على مثل هذا.

- في ألمانيا تقدمت عجوز في الثمانين لفحص الثانوية، أنت ما زلت

شابة، ولكن الرغبة والإرادة هما المحرك الفعال. فهل تريدين التعلم؟!

- نعم أريد، وانت نعمة هبطت علي من السماء يا أستاذ.

قال الحاج عبد القادر :

ابدأ يا بني بالإجراءات، واجلب معك الكتب، وسأتكفل بالنفقات كافة.

بل سأدفع مني النفقات، وهي زهيدة، واحسبها هدية لسميرة.

لم تصدق سميرة ما تسمع، فما حلمت يوماً أنها ستصل إلى ما

وصلت إليه.

قال لها الحاج عبد القادر :

- بإمكانك تطبيق ما تعلمت على الحاسوب، وهذا حاسوبي تحت تصرفك.

نفرت الدموع من عينيها وقالت :

- أنا عاجزة عن شكركما، ولكنني سأكون عند حسن الظن، هذا يوم

مفصلي في حياتي.

استمرت الدروس على الحاسوب يومياً، وسميرة تتقدم في الفهم والاستيعاب، ومنذ اليوم التالي لمجيء يمان صارت كتب الصف التاسع ملكها،

فقد بر بوعده، وجلب لها الكتب، وعلمها طريقة التعلم الذاتي، كما أنه قد قال لها يوماً:

أنا مستعد أن أبقى ساعة معك، بعد درس الحاسوب، لأفهمك ما صعب عليك استيعابه وحدك.

واستمرا فترة، لكنه اتفق معها - وبمبادرة من الحاج عبد القادر - أن يعطيها في كل يوم ساعة في الرياضيات، والهندسة، واللغة الأجنبية، وأن تكون الساعة مأجورة، وتعهد الحاج عبد القادر بالدفع.

تقدمت في دراستها بشكل ملحوظ، فأيقن الأستاذ يمان أن نجاحها مؤكد وأخبر الحاج عبد القادر، الذي ازداد سروراً، ونجح في تقديم شيء للبائسين يستحق التقدير والاحترام، ما زاد في احترامه لنفسه، وحبه الناس والحياة، وقال

في نفسه:

الآن شعرت بلذة العطاء، وكنت أظن أن اللذة لا تتأتى إلا من جمع المال).

٦

اتصل أبو إبراهيم الدسوقي بالحاج عبد القادر، وقال:

- قلت لي يا حاج عبد القادر إنك تحب مجالس الخير، وثمة مجلس خير منعقد للتعريف بجمعية خيرية فريدة، والاجتماع في صالة المركز الثقافي بدأ الساعة الخامسة مساء، لشرح أهداف جمعية حفظ النعمة)، ولجمع بعض التبرعات، وسيحضر أرباب الإعلام والصحف والمسؤولون، وبعض رجال المال والأنشطة الاقتصادية، ورجال الفكر والقلم. وهذه الجمعية الخيرية، قد نالت فكرة

إنشائها الترحيب والتقدير من الجميع.

- ما أهدافها ؟ حبذا لو أعطيتني فكرة.

ستشرح أفكارها في الاجتماع، وغايتها باختصار، جمع الخيرات المهدورة من المجتمع في مركز كبير، وتوزيع ذلك على الفقراء، بحسب احتياجاتهم.

وبرغم أن الحاج عبد القادر لا يحب الاجتماعات التي لا ينتج عنها سوى الكلام، وغالباً ما يكون مكرراً، إلا أنه قرر حضور هذا الاجتماع، كونه نوعاً

من الانفتاح وخطوة نحو العطاء. فقال لأبي إبراهيم:

- سامر بك عند الرابعة والنصف، وتذهب معاً.

التقيا في الموعد وذهبا بسيارته إلى مكان الاجتماع، فوصلا في التوقيت

المحدد، واختارا مكاناً في الصف الثاني وجلسا.

كانت المنصة الناهضة تقوم على مسرح المركز الثقافي في أبي رمانة عليها طاولة مستطيلة، وقد زين سطح الطاولة بالورد والزنابق في حين امتلأ الصف الأول بالمسؤولين، وعلى رأسهم المحافظ.

صعد عريف الحفل إلى المنصة، وارتجل بعض الكلمات، وأشاد بتكافل المجتمع وحبه فعل الخير، ثم قال:

الكلمة الآن لرئيس الجمعية الدكتور جامع البلوشي، فليتفضل:

خرج من الصف الأمامي رجل ربعة في الخمسين، يلبس طقماً كحلي اللون وقميصاً أزرق تتدلى من يافته ربطة عنق ملونة.

حيا الحضور، وعدل اللاقط، ثم قال:

- سيدي المحافظ السادة المسؤولون، أيها الحفل الكريم.

يطيب لي في هذه المناسبة، أن أعرفكم بجمعية (حفظ النعمة) التي استلهمت من تكافلنا عبر العصور فكرها، ومن تراثنا أسسها، فقد قال

نبينا الكريم:

إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم ملي

وأنا منهم».

ولقد شاهدت الناس فيما مضى، وقد انقسموا إلى فقراء - وهم الكثرة الغالبة - وقلة غنية تتحكم بالخيرات وتبذرها وهي القلة القليلة. أناس كثر يعيشون من نفايات الحاويات، وقلة تنفق فوق احتياجاتها بطراً وفخراً وتبذيراً، وتلقي بما زاد عنها للقطط والكلاب. وقد اجتمعت مع نفر من أهل الخير نتدارس هذه الظاهرة ونتفكر في حال الإنسان عندما يبطر، وفي حاله عندما يفتر، فوجدنا أن من الواجب أن نحث الأغنياء على الترشيد، لأن المال في المحصلة هو مال الله، وإذا وجد بذخ وفيض، فالفقير أولى به، سواء أكان ذلك طعاماً أم لباساً أم مالاً، وبذلك تؤمن للفقير طعاماً ولباساً ريثما يجد عملاً.

وعلى الدولة أن تساعد في إيجاد فرص العمل لكل محتاج، عندها يعتمد الفقير على عمله، ويعيش بكرامة، وكرامة الأمة من كرامة أبنائها. فكانت من هنا فكرة إنشاء هذه الجمعية، التي نجتمع اليوم لرفدها بالتبرعات.٧٢

أفاض كثيراً فى الكلام، أعاده ورددده حتى مل الحاج عبد القادر، وقال في نفسه ليته ..سكت أخيراً نزل عن المنصة، ليعاود عريف الحفل تقديم خطباء آخرين تكلموا في المنحى نفسه وحثوا على التبرع، وبعد التشجيع والترديد الذي زاد عن حده فتح باب التبرع، فتبرع المحافظ بتقديم مقر للجمعية، ورئيس غرفة التجارة تبرع بخمسين ألف ليرة، وأكبر مستورد تبرع بمئة ألف، ولما لم يبق

مشرع، صعد عريف الحفل إلى المنصة مجدداً ليقول:

لقد بلغت قيمة التبرعات خمسمئة ألف ليرة سورية، وهو رقم كبير عوض الله على كل متبرع أضعاف ما تبرع، فهل من متبرع أخير قبل إنهاء هذا

الاجتماع المبارك.

رفع الحاج عبد القادر يده، وقال:

- أريد أن أتبرع.

قدموا له اللاقط النقال، وقال له عريف الحفل :

- رجاء قدم اسمك، والمبلغ الذي تريد أن تتبرع به.

- أنا عبد القادر المكاثر، صاحب متجر في سوق الحميدية، أريد أن أتبرع

بمليون ليرة سورية.

ضحت القاعة بالتصفيق والهرج والمرج لقد فاجأ الجميع وأدهشهم، والتفت المحافظ إلى الخلف ليرى من هو عبد القادر المكاثر، وكذلك جميع شاغلي الصف الأمامي، والحاج عبد القادر ثابت غير مكترث. وبعد مزيد من

الهرج والمرج قال عريف الحفل :

- أهلا بك يا سيدي النبيل، وشكراً لكرمك، وأرجو أن تبقى في القاعة

لأن الصحافة ورجال الإعلام، سيلتقون بك.

تعجب الحضور من سخاء هذا المتبرع الذي انتظر إلى النهاية متحفزاً ومتريثاً، ثم انقض ذلك الانقضاض الباهر، فاجأهم بكرم سخي لم يجد به متبرع من قبل، لكن من تعجب واستغرب إلى درجة الذهول كان أبو إبراهيم نفسه، فهو

يعرف الحاج عبد القادر وأباه سليمان، وهما قد نشر على تقديس المال وكنزه، عن طريق البخل الأسود والربا الفاحش، فما الذي دعاء اليوم للبذل بسخاء، لعل لذلك علة وأسباباً، فما الذي تغير يا ترى؟

أجرى معه (التلفاز) لقاء مطولاً وأثنى عليه كذلك فعل العديد من مندوبي الصحف، ونشروا له الصور، أما هو فأصبح بدءاً من اليوم رجلاً آخر.

كثير في صباح اليوم التالي، دعاء المحافظ إلى القهوة في مكتبه، أما رئيس غرفة التجارة فقد شكره، منوهاً بكرمه، واضعاً التسهيلات أمام مستورداته، حتى مديرو البنوك عرضوا عليه تسهيلات ائتمانية، لكنه كسب بلا شك حسد : من زملائه إلا أنه امتلأ سروراً، وزاد إعجاباً بنفسه التي اتخذت القرار في اللحظة الأخيرة، وانتزعت إعجاب الجميع. صحيح أنه قد خسر مليوناً من الليرات، لكنه ارتفع في نظر الناس قيمة ، وازداد علاء أضعاف ما خسر.

الآن عرف كيف يتصرف بالمال الذي رفعه، والآن عرف أن المال يرتقي بمالكه إلى قيمة اجتماعية رفيعة، إذا أحسن التصرف بهدي الضمير والمثل والقيم. وفي مجمل الأحوال، فإن هذه الأموال ستذهب إلى مشروع خيري، يعالج حاجات الناس الملحة، ويساعدهم في محلهم ومصائبهم، لكن الأهم من ذلك في نظره، أنه جاء دواء لعلته التي بدأ يتعافى منها، ألم يقل له الطبيب النفسي :

عليك أن تنتزع احترام الناس، بأعمالك النافعة التي تقدمها لهم بوساطة مالك) فكلما أنفق مالاً انزاح عن صدره ثقلاً يشبه الصخرة، وقد غدا سروره في الإنفاق والتبرع عظيماً، بعد أن كان في الجمع والبخل والتقتير مغرماً، فسبحان الذي يغير ولا يتغير !

ثم قال في نفسه:

عندما يجتمع المال، والعقل، والهدف النبيل، وقليل من الجنون - أي المخاطرة - تحصل المفاجآت، وتتحقق الغايات، ويتولد الاحترام. ربما كان لك

يا عباس فضل في انبثاق هذه الأفكار عندي، فلقد ارتقيت بها وخرجت من ماض كتيب عشته).

علمت المدينة بمواطنها الكريم فذاع صيته، وتغيرت نظرة الناس إليه وصار مضرب المثل. أما سميرة فقد زاد حبها له ولكنها كتمته في صدرها. كانت تنتظر الصباح بفارغ الصبر لتلقاء، وفي ذلك سعادة لها ما بعدها سعادة.

وعندما فاض بها الوجد، قررت أن تفاتحه بالحب والهيام، وليكن ما يكون. كان ذلك أول حب في حياتها ، بعد جفاف دهر. وكانت دورة الحاسوب قد انتهت، وتوافر لها المزيد من الوقت للدرس والتفكير.

وفي ذات يوم فاجأته بقولها، وكانا يشربان القهوة:

عبد القادر، أنت أروع اسم نطقه لساني، ومر أريجه على شفتي، أنت رائع مثل جدول نمير عذب، أو سرب من القطا يسبح في زرقة السماء، سادلي إليك بسر خطير :

حبك سكن قلبي، ثم سرى في شراييني فملك كياني، إن نفسي تتوق إليك يحب نظيف شريف، أشعر به لأول مرة في حياتي فلا تؤاخذني بهذا البوح، وأنا

أدرك الفوارق بيننا .

دهش هنيهة كان يعرف أنها تحترمه وتجله، منذ بدأ جلسات القهوة معاً، لكنه لم يكن ليدرك أنها وصلت إلى هذه الدرجة من الوله، فتحرات ونطقت وأعلنت حباً كتمته، وهي المتحفظة، لقد قدمت نفسها على مذبح العشق تخاطبه كما تخاطب الحبيبة حبيبها.

عندما صحا من نشوة أسرة قال :

- أنت أيضاً يا سميرة خفقة القلب الأولى التي تأخرت أربعين عاماً، وأنت النافذة التي أدخلت إلى روحي نسائم بحرية ناعمة رطبة طرية، فرأيت الحياة مؤارة طازجة، واكتشفت المعاناة الإنسانية التي غفلت عنها.

ازداد وجيب قلبها، كما ازدادت جرأتها بعد أن غزتها رغبة طاغية.

- أنا أحبك يا عبد القادر، ولم استطع كتم هذا الحب ردحاً طويلاً، فقد بحت به رغماً على، ولو تركتني الآن، لبقي حبك في قلبي إلى الأبد.

انتشى بخمرة حديثها، وغزته شهوة مفاجئة لا عهد له بها، فانفتح أمامه افق أرجواني، هب منه هواء حار، فاشتعلت في داخله الرغبات فقال:

- كيف تقولين ذلك؟ فأنا لا أستغني عنك مدى الحياة، بك عثرت على

الأمل، وانفتحت أمامي سبل العمل.

امسكت يده ورفعتها إلى فمها، لتلثمها فظن أنها تريد الغوص في أنام الرغبة، فطوقها من خصرها وشدها إليه بقوة، ونزل غطاء الرأس، فرماها فوق السرير القريب وتنسم من جسدها الغض رائحة الإثارة، فاندفع بجنون الرغبة البكر سادراً في عليه، ولأول مرة جرت دماء ذنبية في عروقه متدفقة، فألقى بنفسه فوقها ليحتوي جسدها فصاحت بحزم

- ما هكذا يكون الحب الصافي المنزه.

تخيل نفسه ذنباً أمسك غزالة، بعد جري طويل في سهوب واسعة منفتحة

وكانت لحظات من السعادة واللذة، لم تخطر على باله في كل حياته الماضية، حاول أن يلتهم فاكهة محرمة، ولكنها لذيذة، بل كانت من اللذة بحيث عجز عن تصور روعتها، وبرغم أنه لم يصدق ما حصل، إلا أنه ابتهج وانتشى، وسدر في غيه مجدداً أعمق فأعمق، وتدفقت في نفسه ثقة لا حدود لها، فأيقن أن بإمكانه الآن امتلاكها في الحال.

صاحت بعنف

- لا أريد ذلك بالحرام، بل بالحلال، وفي الوقت المناسب.

صحا من حلم لذيذ، فسقط عليه شلال بارد كالصقيع، فانطفأت النيران

وحل غضب وكره فقال:

- تطمعين بمالي، فتراودك أحلام الزواج مني، إنها خدعة حقيرة، لن يكون ذلك أبداً! كيف تسمحين لنفسك بذلك؟

في البدء ارتج عليها من الصدمة، ثم استعادت جاشها فقالت

فما زال أبوك في قبره يحركك بخيوط الموتى كأنك دمية في مسرح العرائس. - اسفى على أفكارك اللاصقة بك كجلد. تزعم أنك تغيرت لكنك رآهم

- تتذرعين بالحب يا زوجة دباح البقر) وهدفك الثروة والقصر. لقد لممتك من بين أدراج الأبنية، التي كنت تغسلينها، فطمعت في ثروتي وحلمت بدارتي كان عبد القادر، قد نكص وعاد سيرته الأولى، وكان الذي حدث من التغير في حياته تلاشى كالضباب. لم يكن التغيير بالعمق الكافي، ولم تكن القناعة يقينية، وعاد إلى أفكاره القديمة في لحظة صاعقة، كأن ذلك التغير الذي حدث له قشرة سطحية، لمعت ثم غابت وبقيت الروح جاهلية.

كانت القسوة المصبوبة على سميرة في أعلى درجاتها. ثوان قليلة كافية لينقلب من النقيض إلى النقيض. هل لأنه في أعماق نفسه كان يحبها، وكان عليها أن تستسلم من دون ممانعة؟! أما وقد ما نعت؛ فليكن العقاب كبيراً بحجم الحب.

قالت:

- اعذرني كنت مخدوعة بحب زائف زينته لي نفسي، فتخيلته حقيقة وكان سراباً، لا تدرك الآن جراحي وآلامي وأحزاني كم هي عميقة. لقد عذبتني يا عبد القادر في دقيقة واحدة أكثر مما عذبني (دباح البقر) في سنين.

أدعو عليك بأن تبحث عن الحب فلا تجده أبداً، وأدعو أيضاً أن تخونك من ستحبها، إن وجدت من تحب.

غادرت القصر على عجل وسط ذهوله وندمه. لقد حصل ما حصل بسرعة فائقة، ربما هو لم يكن يقصد ما عناه، لكن الزجاج انكسر، وسفح منه ماء لن يجمع أبداً. وخلا إلى نفسه فترة طويلة، لفها حزن مرير وندم.

خاطب نفسه مؤنباً : هذه الأمور لا تليق بحاج، إضافة إلى أنها شروع بالزنا).

ولكن ليس للرغبة عقل، وليس لها قانون، لقد تخيل أنها تأوّهت من المحرمات يا حاج سمع نداء داخلياً كانه برهان ربه فأجاب مدافعاً بسرعة اللذة، وكادت تستسلم له عندما ضمها بقوة منذ الثواني الأولى: إن ذلك من

ولكن الله غفور دائماً، حجة ثانية إلى بيت الله الحرام في مكة، تعيدني مرة أخرى مطهراً من الخطايا، نظيفاً كثوب أبيض. بل أعود كما ولدتني أمي بريئاً نقياً وينتهي الأمر).

قالت له نفسه اللوامة:

(تسوغ الزنا يا عبد القادر، كما سوغ أبوك سليمان الربا الفاحش باختراعه خدعة شراء الصابون وبيع البرتقال ؟! ما أهون تسويغ الخطايا!).

أجابها :

- سنجد الحل فيما يأتي من الأيام، أليست هي ملك يميني، فأين الزنا؟

غابت سميرة وانقطعت أخبارها، ولكل داء دواء. الجروح تشفيها الأيام ودواء العشق الفراق، ومرور شهور تكفي للنسيان. مضت بعد الحادثة شهور كانت كافية ليحول الحاج عبد القادر حبه إلى نور الصباح، فهي أنضر صباء وأشد جمالاً وثقافة، إنها منبع الأفكار ومصدر الخبرة، وربما تكون مشروع الحب القادم، وتيقن أن الذي كان بينه وبين سميرة هي إرهاصات لحب حقيقي قادم.

قال في نفسه:

أتراني أسير على خطا عباس التي مشاها في الصبا؟ وهل من الممكن أن يراهق كهل في الخمسين، كما يفعل المراهق في العشرين، لأن أباء منعه من ممارسة حياة سوية، جاعلاً منه صندوقاً للمال، مجرداً من الرغبات والأحاسيس والمغامرات؟

طال غيابه خارج البيت، فكانت ابنته تشرف على شؤون بيته، وتسوغ له غيابه بكثرة العمل، والانشغال بمشاريع جديدة كانت تعد له طعامه، فتأتي بخادمتها إلى بيت أبيها، فتنظف وتغسل وتكوي، ويزداد عليها العبء الإضافي

والتعب لم يعد يحتاج خادمة بعد أن انت خادمة ابنته الواجب تفرغ لدور الصباح واعطاها الوقت كله، فازداد إعجابه بها وافتتانه بثقافتها وقوة إقناعها، لكن إعجابه الأكبر كان بجسدها وجمال وجهها، وقد صارت تتبرج وتزيد من الزينة واضاعت حياته بلون جديد من الألق وقال في نفسه

هذه الفتاة تصلح للحب الراقي الذي يتباهى به أمام الناس، وإذا وجها فسيحسده الناس ولا يعيرونه، لكنه ان تزوج سميرة درويش قالوا : الحاج عبد القادر يتزوج مطلقة دباح البقر)، تلك الأرملة التى تشطف الأدراج وتخدم الناس، فكم هو منحط هذا الرجل). وتبرعه الذى رفعه سيتبخر والمحافظ الذي دعاء إلى مكتبه سيحتقره بل سيطرده من بابه ان زاره وفى بره سيضحك حتى يشبع وربما يكون موضوع تنذر فى سهراته مع الخلص من اصدقائه المسؤولين، إن زواجه من سميرة درويش سوف يهوي به إلى مكان سحيق.

استرسل الحاج عبد القادر في تداعياته، فقال في نفسه: (إن حب نور الصباح أريج الزهور الفواح الذي ينمي الروح. وهو الإطلالة الراقية التي تلون الحياة بالضياء، فمتن علاقتك بنور الصباح، يا حاج عبد القادر، ولتكن سخياً، فلكل إنسان مفتاح، ولكل متعة ثمن. وما حبك الماضي لسميرة درويش سوى سراب أججته شهوة مكبوتة، انقلب الآن إشفاقاً. ابحثي يا سميرة، عن موطئ قدم في دروب الحياة الصعبة، فبعد الحاج عبد القادر لن تجدي أحداً يرفعك، وستعيشين عيشة الكلاب).

كان الحاج عبد القادر مخطئاً فيما اعتقد، لقد زادت الحادثة المهيئة في إصرار سميرة على الكفاح، إنها الآن مسلحة بشيء من الخبرة، وتتدرج في طريق العلم، الأهم من كل ذلك عليها الرد على الإهانة التي طالت كبرياءها.

ما تزال تذكر قول يمان الآغا مدرس الحاسوب: أنت ذكية وتستطيعين متابعة العلم الذي فاتك. إن الزمن لم يفت بعد).

صممت وبإرادة قوية أنها ستثبت ذاتها، وقد اكتشفت نقاط قوتها. الطريق صعبة لكنها ليست مستحيلة، ستبحث عن عمل جديد يتعلق بالحاسوب الذي برعت فيه، وتقدمت فى العمل عليه بكل اهتمام، وها هي ذي اختها تعمل فى جمعية حفظ النعمة، وكان الفضل فى ذلك للحاج عبد القادر، قبل أن يجري ما جرى، وبهذا الراتب الضئيل تعيشان، لكن عليها أيضاً البحث عن عمل جديد، ومتابعة الدراسة، فالخطط الجديدة تحتاج المال.

تقدمت سميرة إلى فحص الشهادة المتوسطة، فنجحت بتفوق، ما زاد من تقتها واندفاعها، زالت الصدمة رويداً رويداً، لكنها تركت ترسبات في النفس، ما تزال في الأعماق.

بعد بحث عثرت على وظيفة في مقهى إنترنت، وكسبت من خلال ذلك علاقات اجتماعية جديدة، لكنها لم تنسج علاقة حب جديد، ولا سلمت نفسها لمخلوق، أصبحت جدية أكثر من اللازم، ووضعت لنفسها هدفاً تسير باتجاهه، وتكونت لديها ثقافة من الإنترنت نفسه، فتراكمت، فأفادها ذلك في الأيام المقبلة.

جاءه خطاب، أعقبه اتصال من رئيس جمعية (حفظ النعمة) يفيد أن مجلس الإدارة قرر تنصيب الحاج عبد القادر رئيساً فخرياً للجمعية، يحضر متى شاء اجتماعاتها، وعلم عباس بالأمر فبيت في نفسه هدفاً شيطانياً، بعيد المدى، فقال للحاج عبد القادر :

- لقد أصبحت يا حاج عبد القادر، شخصية اجتماعية مرموقة، ويعود الفضل في ذلك إلى الإعلام، فأرى أن يكون لك مكتبك الخاص، بدل أن تداوم في المتجر، لأنك صرت أكبر منه، فالمتجر يقزّمك إلى تاجر صغير، عليك أن تكون أكبر من ذلك بكثير.

قالت نور الصباح وكانت تسمع الحديث:

- إنني أؤيد هذا الرأي، فلم لا تكون، يا حاج عبد القادر، شركة تضامنية، تكون أنت رئيسها، لها مقر ومكاتب؟ وغرض الشركة هذه تصنيع الألبسة القطنية،٨٠

وقد قدمت لك الدراسة الموضوعية والفنية فيما مضى، وما عليك إلا شراء

الأرض، وإقامة المصنع. فوجئ باقتراحها فقال:

الشركة تتكون من أعضاء، فأين هم شركائي؟

قال عباس:

موجودون أمامك الآن، نور الصباح وأنا.

- لكنكم لا تملكون مالاً.

أجاب عباس:

- أستقيل أنا من الوظيفة، وأضع تعويضي البالغ مليون ليرة، كرأسمال في الشركة، وأتفرغ معك للعمل، فأدير المتجر بدلاً عنك، وتبقى أنت مديراً للشركة في مكتبك الفخم. أما نور الصباح فتقدم عملها وخبرتها ويعد هذا بحد ذاته نوعاً من رأس المال، وتضع أنت يا حاج عبد القادر، باقي رأس مال الشركة.

- أنت بارع يا عباس، في التجارة كما كنت بارعاً في تطبيق النساء في متجرك الذي بعته، وأصبح جزءاً من متجري الحالي، سأدرس الأمر بعناية.

ضحكت نور الصباح وقالت العباس

- هل كنت في يوم ما (دنجوان) زمانك؟

ضحك عباس وقال:

- كانت أيام، أما الآن فأنا في أواخر الأيام.

فكر عبد القادر في الأمر، ودرس الفكرة مع ابنه، ثم التقيا الدكتور عبد الرؤوف المسلماني، واستشاراه حول فكرة إنشاء شركة تضامنية مع عباس ونور

الصباح، وأن ثمانين في المئة من التمويل سيكون من عبد القادر.

شجع الدكتور عبد الرؤوف الأب وابنه على ذلك، فالفكرة ممتازة لأن آفاقاً ستفتح أمام الشركة لأكثر من اتجاه، أهمها جهة التمويل، فعن طريقها يستطيعون جر قروض بمئات الملايين من المصارف الحكومية، التي تشجع الصناعة الوطنية، بفوائد زهيدة، وأما لجهة الشريكين عباس ونور الصباح، فقد قال الدكتور عبد الرؤوف

احسبهما رجلي كرسي، وحصتهما لا تتجاوز عشرين في المئة ولن يجنيا من الأرباح إلا بمقدار ما دفعا، أو حسب جهدهما المبذول، فابدأ التأسيس بسرعة، يا حاج عبد القادر

وجد الحاج عبد القادر مقراً رائعاً لشركته قرب السبع بحرات، طابقاً مؤلفاً من عشرة مكاتب جاهزاً مع فرش أنيق، فأصبح للشركة مقر وأشهرت.

توالت الاجتماعات بعد وضع أسس الشركة، وانتقل الحاج عبد القادر إلى مكتبه الجديد، ومعه نور الصباح، في حين بقي عباس في المتجر.

تقدم عباس باستقالته، وقبض المليون ليرة كتعويض عن نهاية خدمته أبقى المبلغ معه، ولم يخبر الحاج عبد القادر بذلك، وكلما سأله:

- هل قبضت يا عباس، تعويضك؟

كان يقول :

- لا، ليس بعد الإجراءات (البيروقراطية) مقيتة وعلينا الصبر.

V

الساعة الثانية عشرة ظهراً، وعباس في المتجر، يفكر ويتأمل ما مضى من حياته... كان نصف هذا المتجر الكبير ملكه، مستقلاً فيه يتاجر، ويعقد الصفقات، وكان يستجر بضائع راقية مهربة، ويبيعها بأغلى الأسعار، وفي ركن قصي منه

التقى بأجمل فتيات دمشق ونسائها، وتبادل معهن أحاديث الغرام وحلو اللقاء، وكانت الحياة خضرة حلوة إلى أن دهسته مفرزة الجمارك، وضبطت بضائعه المهربة، وغرمته بمئات الآلاف، تحت طائلة سجنه إن لم يدفع الغرامات، يومها أتي الحاج عبد القادر في دكانه يطلب النجدة؛ خمسمئة ألف يستلفها منه لتسديد الغرامات، ووعده بأن يردها بعد ثلاثة أشهر بضمانة دكانه.

يومها قال له الحاج عبد القادر :

- ليس بحوزتي مثل هذا المبلغ، ولو كان بحوزتي وأعطيتك إياه، فأنت لا تستطيع تسديده.

- سأدفع الفوائد التي تريد، وعدني مثل بقية الدائنين، الذين كان والدك

الحاج سليمان يعطيهم النقود، لقاء الفوائد الباهظة.

- بعد موت أبي لم أعد أستخدم هذه الطريقة في استثمار الأموال.

كان عباس يعرف أن عبد القادر يملك الملايين في خزائنه، ويدعي صداقته ولكنه برهن أنه عند الضيق ليس بصديق. خرج من دكانه خائباً منكسر النفس وحاول مع تجار آخرين استلاف المبلغ المطلوب فلم يجد أحداً ينقذه أو يدينه أي مبلغ أو يلقي إليه بحبل نجاة، فلم يعد له في نهاية المطاف، بد من بيع الدكان، وتسديد الغرامات والا فالسجن بانتظاره... لذلك ذهب محدداً إلى دكان

عبد القادر ليقول :

- قررت بيع دكاني لتسديد غرامات الجمارك، ورأيت أن أعرضها عليك

فالجار أولى بالشفعة.

- كم تريد ثمنها ؟

- مليون ليرة.

ضحك عبد القادر، وهز رأسه استهزاء، ثم قال :

- إذا لن تجد مشترياً أبداً .

- كم تدفع أنت؟

- خمسمئة ألف ليرة فقط.

- لكنني أحتاج النقود غداً، فهل تملك السيولة في صندوقك؟

نعم، وستقبض المبلغ، على أن تسجل لي الدكان باسمي في

السجل العقاري.

- اتفقنا؛ أعطني المبلغ.

نهض بكل صفاقة متمهلاً، باتجاه صندوقه الحديدي، فتحه وأخرج خمس رزم، كان الصندوق مكتظاً بالرزم، فأخذها عباس ونقل الدكان إلى اسم عبد القادر وسدد رسوم الجمارك.

يتذكر عباس، كم لاقى من العنت في البحث عن وظيفة، لم ينقذه بعد شهرين من التشرد إلا موظف كبير كان يعرفه، وقد توثقت العلاقة بينهما، لاشتراكهما في التغرير بالبنات، وإقامة السهرات الماجنة، فتوسط له لدى مؤسسة

الإسكان ونال وظيفة.

ظل غدر صديقه عبد القادر في ذاكرته، لكنه أبقى معه بعض الاتصال شعرة معاوية - كما يقولون - لقد خذله وقت حاجته، وتبين أن صندوقه مكتظ بالرزم.

وقال في نفسه:

سأسترد الدكان يا عبد القادر بل سأخذ معها دكانك أيضاً، فهما قد اصبحا متجراً كبيراً واحداً، وإذا كنت أنت تملك المال فإنني أملك الذكاء والدهاء والثقافة، وهي أهم من مالك، لكنني سأعطيك الثمن من مالك أنت.

أوقف تداعيات ماضيه صوت من السوق تجلى في ضجيج وهرج

ومرج وصياح

- ماذا في الأمر ؟ قال مخاطباً نفسه.

خرج من الدكان، وقد أغلق الباب البلوري، متجهاً جهة الأصوات، فوجد جمهرة من الناس عند باب دكان أبي حسن الزقيق الملقب بالألمنيوم)، الذي كان محصوراً في دكانه، بل محاصراً لأنه مهدد بهذا الجمع الغفير، شباب ونساء وكهول والكل يصيح

- نريد أموالنا أيها النصاب، إذا لم تسددها الآن فسوف نكسر المحتويات على رأسك، فمن الأفضل أن تسدد الآن، ولن ندعك تخرج حياً إن لم تسدد.

كان أبو حسن الزقيق ممن سموا (جامعي الأموال وهم تجار يجمعون من بعض الناس مدخراتهم، ومن النساء مصاغهم بعد تحويله إلى ما يعادله من نقود

ويعطونهم فوائد قد تبلغ سنوياً مئتين في المئة أو أكثر، وهذه الفوائد الخيالية التي تغري الناس بوضع أموالهم لدى هؤلاء التجار، ما هي إلا الحب الذي ينثر للطائر لاصطياده، فالمدقق يعرف أنه لا يمكن لتجارة في العالم أن تبلغ أرباحها مثل هذا الرقم، لذلك هم مرشحون بعد أشهر إلى الإفلاس وخسران أموالهم، عندما يذهب التاجر بالأموال كلها، ويختفي خارج البلد، وفي أكثر الأحيان فإن الجشع يودي

بصاحبه إلى الهلاك والخسارة، ويخلق النصابين ويشجعهم.

كان أبو حسن الزقيق يبيع الألبسة الأوروبية الجاهزة في محله، ومن أرقى الأصناف، ويتعامل - كما الحاج عبد القادر - بذلك النوع من التجارة، ويختلف عنه عبد القادر بأن بضاعته تدخل عن طريق الجمارك، وهي نظامية وبموجب بيانات، ولكن أرباحها أقل نتيجة ما يدفع عليها من رسوم أما أبو حسن الزقيق فيدخلها تهريباً فيربح القرش خمسة وأحياناً أكثر من ذلك، وعلتها أنها ليست

محمية بالبيانات، فيسهل كشفها، وعدها تهريباً.

وقف عباس أمام المتجمهرين وقال:

انا ساحل لكم المشكلة وسأعطي النقود (للألمنيوم) صاحبكم لكن

اسمحوا لي بدخول محل أبي حسن.

أوسعوا له. فقال لأبي حسن:

- افتح الباب يا أبا حسن فقد جئت للمساعدة.

فتح أبو حسن الباب ثم عاد وأقفله، وجلسا لحل المشكلة. قال أبو حسن:

- لقد أرسلك الله لنجدتي، أنا في أمس الحاجة للنقود نقداً، إذا لم أدفع لهم في التو قتلوني أو نهبوا البضاعة.

- كم تحتاج من المال؟

- مليون ليرة.

آب هذا مبلغ كبيرا من سيعطيك مثل هذا المبلغ ؟

- أنت من سيتدبر الأمر منك أو من غيرك، لكنني أريده في الحال.

- ما المقابل؟

- بضاعة مهربة قيمتها خمسة عشر مليوناً.

- من أي نوع؟

من الأصناف الأوروبية الراقية التي تبيعونها في دكان الحاج عبد القادر.

- أشتريها منك بمليون.

- إنك تظلمني وتبخسني أشيائي.

- ولكنك تريد المال فوراً، ولا يوجد مشترون، وأنت مضطر للبيع، وهذه

حال سوقنا إذا لم تنتهز الفرص فكيف يأتي الربح ؟!

- رضيت، فأين المليون؟

اشترط عليك الا يعلم أحد بهذا الاتفاق، حتى الحاج عبد القادر نفسه وساخرج الآن مع وكيلك لأعطيه المبلغ، وأتسلم البضاعة، فأين البضاعة الآن؟

- في مستودع قريب.

سأنقلها إلى مستودعي بسياراتي بعد أن أعطي وكيلك المليون.

اتفقنا.

أمر وكيله الذي كان يقف قربه بالخروج مع عباس، وأن يأخذ معه مفتاح المستودع، فيسلمه البضاعة المهربة بعد أن يقبض المليون في الرع وقت.

خرجا ووعدا المتجمهرين بأنهما ذاهبان لجلب الأموال. ولما وصلا إلى المستودع عاين عباس البضاعة وابتسم ابتسامة الظفر. لقد كانت تساوي أكثر من خمسة عشر مليوناً إذا بيعت بالمفرق في دكان الحاج عبد القادر.

قال للوكيل:

- سأذهب لجلب المليون، ابق أنت هنا، ولن يستغرق مشواري أكثر من

خمس دقائق.

عاد ومعه المليون وسيارات النقل، فتسلم الوكيل المبلغ وسلمه البضاعة، فحمل الساقة البضاعة ونقلوها إلى بيت عباس. كان عنده من أصل غرفه الخمس غرفتان فارغتان، فقد باع بعض أثاث بيته عندما فقر وجاع

حتى حصل على وظيفة.

عاد إلى دكان الحاج عبد القادر وفتح الباب البلوري، نظر إلى ساعته وقال في نفسه: استغرق الأمر ساعتين ربحت في أثنائهما الملايين من الليرات.

كم من السنوات الضوئية يلزمني إذا بقيت موظفاً كي أجمعها ؟!).

جلس خلف الطاولة وقد تاقت نفسه إلى القهوة، وبينما هو كذلك جاءه صوت أنيق حنون، فلمح نور الصباح بوجهها المضيء كالقمر، وهي تقول:

- ما الذ رائحة قهوتك عبيرها ضاع فوصل إلى باب المتجر، وعطر أرض السوق.

قال لها : - جنت في الوقت المناسب، وأردف مفتتحاً حديثه الطويل معها، اتعلمين يا نور الصباح أن نصف هذا المتجر كان ملكاً لي، وأن عبد القادر اشتراه مني بالإكراه، وتحت ضغط حاجتي للمال بثمن بخس، ورفض أن يسلفني خمسمئة ألف ليرة هي رسوم جمارك فرضت علي، لأنني كنت أحوز بضائع مهربة، وأبيعها في محلي، وأنه دمج الدكانين فأصبح له هذا المتجر الكبير؟

- لماذا لم ينجدك وقت الضيق؟ أنا أعرف أنه متبرع محسن يساعد الفقراء، فلم لم يساعدك وأنت جاره وصديقه ؟

لأنه كان يطمع في دكاني ليشتريه بثمن بخس، تحت ضغط حاجتي، ولكنني سأسترده وأخذ أيضاً دكانه، فيكون لي هذا المتجر بأكمله، وكل ذلك حلالاً، بالبيع والشراء ودفع المال، ودون استغلال حاجة.

- كيف ذلك، ومن أين لك المال؟

- لقد اشتريت للتو بضاعة مهربة قيمتها أكثر من خمسة عشر مليوناً من الليرات، وسأبيعها بالمفرق في متجر عبد القادر، وهذا الأمر سيبقى سراً بيننا.

أصابها الذهول بعدما حدثها بما جرى معه فقالت:

- يا لك من ذكي، بل أنت داهية وتعرف من أين تؤكل الكتف ولكن أليس معنى ذلك أننا نشترك معاً في خيانة الحاج عبد القادر ؟

- لا، نحن لم نحن أحداً، بالعكس نحن أرشدناه إلى عمل أفضل، يدر

عليه الملايين، وقد تجلى ذلك بإنشاء الشركة التضامنية، وإنشاء مصنع الألبسة القطنية الذي هو قيد الإنشاء، وهذه فكرتنا التي سينفذها، وكما يقولون رب فكرة تساوي مليون دولار. وكان نصيبنا منها الفتات عشرين في المئة فقط، فنحن المغبون حقنا، ولكنني مستقبلاً سأنصف نفسي وأنصفك.

- كيف ذلك ؟

ستكتشفين مع الأيام من هو عباس، ولن استبق الأمور، لكنني أبشرك يك ستصبحين من أصحاب الملايين لكل إنسان يا نور الصباح نقطة ضعف، وعليك اكتشاف نقطة ضعف كل شخص تتعاملين معه، لأنه قد ينقلب في يوم ما ليصبح عدواً، ونقطة ضعف عبد القادر أنه ضعيف الخبرة، في كل مجالات الحياة، لأنه حبس نفسه في الصندوق، ونقطة ضعفه أيضاً أنه مكبوت العاطفة والجنس، فعلى الرغم من أنه كان متزوجاً إلا أنه كان يعاشر زوجه دون حب، ويعدها جزءاً من المتجر في البيت لتفرخ له الأولاد. وعلى كل حال، فقد عاد عليه زواجه منها بمال كثير يوم ورثها بعد موتها، وهي ابنة (شهبندر) التاجر، كما كان يطلق عليه هو لم يعش المراهقة، ولم يعرف الحب، ولا تمرغ في الخطيئة، إلا مؤخراً، أو حاول أن يتمرغ ففشل.

- كيف تمرغ في الخطيئة مؤخراً؟ وكيف فشل ؟

مدبرة المنزل سميرة درويش.

- كيف عرفت هذه الأسرار الخاصة جداً؟

- أحياناً يأتيك بالأخبار من لم تزوديه، وأحياناً عن طريق المصادقة، فقد جاءت ناريمان اخت سميرة للقاء عبد القادر في الدكان، وكنت أنا وحدي فأجلستها خلف الطاولة وعملت لها فنجاناً من القهوة واستدرجتها في الحديث فبدأت أنتزع منها الأسرار وكأنها مخدرة. لم أكن أستجوبها، فإذا شعر جليسك أنك تستجوبينه امتنع عن الكلام والإدلاء، ليكن الحديث سلساً وتلقائياً كجدول رقراق ينساب في أرض مائلة.

بعد مداولة معها قالت:

- أريد أن تساعدني يا عباس في إرجاع أختي إلى العمل في بيت الحاج عبد القادر، لقد تركت عملها ساعة غضب.

- لماذا تركت العمل، لعلهما تنازعا على أمر أو كانت مهملة؟

حاول إغراءها فرفضت، ففهم أنها تطمح للزواج منه هي أحبته بصدق كرجل شهم محب للفقراء، ولم يخطر في بالها الزواج منه أو مساومته.

لكنه كان خسيساً فساومها على شرفها.

- أرجوك، ليبق الأمر سراً بيننا، حتى أختي لا تعلم بمجيئي إليك، وهي لا تريد الرجوع، لكنني قلت تسعى لمصالحتهما بمساعيك الحميدة.

لو كان شهماً لتزوجها، أختك جميلة ومجربة وسيدة بيت. لا شك أنها كانت ستريحه.

مثل هؤلاء لا دين لهم إلا المال، يستغلونك ويساومونك ويستنزفون

دمك، ثم يلقون بك على قارعة الطريق، كنفاية لا مكان لها إلا الحاويات.

- معك كل الحق، وسأعمل ما بوسعي، ولكن عبد القادر عنيد يبحث

دائماً عن مصالحه وملذاته.

قال لنور الصباح مفسراً:

شيئاً آخر. في أعماق نفسي لا أريد لهما المصالحة لأنني أبيت للحاج عبد القادر

ما كنت أظن أن الحاج عبد القادر بهذه الدناءة والسفالة.

- لا، ليس سافلاً، إنها نقطة الضعف التي تتحكم فينا، حتى تصل درجة

العقدة أحياناً، فمن لم يمر في المراهقة وحب الشيطنة في العشرين، قد يتأخر به الوقت ويمارس ذلك في الخمسين، إلا من رحم ربي، أو عصمه إيمانه، وإنما أردت أن أقول لك ما قلت من أجل هدف واحد وسلوك مشترك، يخدم مصلحتنا أنا وأنت.

- ما هذا السلوك ؟

الحاج عبد القادر بعد أن طرد سميرة عاش في فراغ عاطفي، مال إليك وبدأ يحبك بشوق زائد، إنه متعطش للحب الذي حرم منه، وقد خاب ظنه في سميرة، بعد أن أحبها وظن أنها ستستسلم له بسهولة، وعدها ملك يمينه، ولم يفرق بين الحب والجنس، وفكر خطأ أنها تريد ابتزازه والتسلط على ماله هي لم تكن كذلك هي أيضا حرمت من الحب والحنان في كل حياتها، لكنها كانت عرق بين الحب والجنس هي تكره الجنس، لأنه ارتبط بالعنف والإيذاء، ولكنها محرومة من الحب والحنان، وتريده تحت سقف الشريعة والقانون، ولم يعرف هو مفاتيح المها أو عواطفها على الأقل كان عليه ألا يعلمها أو يصرح لها بحبه الذي تجلى في الانقضاض عليها.

وهي أمام أمرين: إما الاكتئاب وصولاً إلى الانتحار، أو التصلب والقوة إلى درجة الجفاف، وتكوين ثقة وإرادة من صخر، فهي في نظر نفسها ذات عامة، وكل ذي عاهة جبار ، ستكون حياتها إما الموت أو الجبروت.

نعود إلى موضوعنا الأساسي الذي بدأنا الكلام من أجله، عليك يا نور الصباح أن تظهري بعض التقرب من الحاج عبد القادر، إذا تقرب منك لا تصديه، وفي الوقت نفسه لا تعشميه بوضوح أو تدلقي» عليه، كوني غامضة وذات كبرياء وأنفة، اضحكي له قليلاً وأثني على رجولته وذكائه كثيراً، مع أنه لا يتمتع بذكاء، ولكن هذا عمل ضروري لاستكمال خططنا.

- أي خطط؟

- سنكون شركاء متساوين في حصص الشركة، إنه يأخذ حصة الأسد ولا يترك لنا من الجمل إلا أذنيه، وهذا ليس عدلاً.

- لكنه الممول الرئيس.

- الفكر والذكاء والدهاء أهم من المال. ماذا أفاده المال إبان أربعين سنة

خلت كدسه برزم كثيرة مرصوفة في صندوق حديدي فخنقه، مع أن قيمة المال في حركته ودورته السريعة، وفكرة التبرع بالمليون التي رفعته وشهرته، أنا من

أوحى إليه بها .

- أنت صاحب الفكرة؟ لقد تعجبت يومها من ذكائه، وقلت هذه

ضربة معلم.

ليس له من ضربات المعلم شيء هو الآن يعتقد أنه وضعنا في جيبه الصغيرة، ثقته بنا كبيرة، إنها ثقة الغبي الذي يؤخذ بسهولة. لقد وثق بنا إلى أبعد الحدود، فعلينا استغلال ذلك.

المطلوب منك تمثيل الحب والإعجاب به، وأنك بدأت تغرمين به شيئاً فشيئاً، واتركي الباقي على، فإنني سأعدل عقد الشركة بحيث تتساوى نحن الثلاثة في حصصها، وسنبيع البضاعة المهربة في المحل معاً، وسيكون لك حصة من أرباح البضاعة التي اشتريتها، علينا أن نقنعه بضرورة دوامك في المتجر بعض الوقت، وأنت تداومين في الشركة حتى الثانية عشرة ظهراً، وترجعين إلى المتجر لألتقي بك، ونتدارس ما سنقدم عليه.

- ألا تخاف من أن تدهمك الجمارك مجدداً.

- لن يطالوني هذه المرة، لأن فواتير بضاعة الحاج عبد القادر النظامية

تحميني.

تذكري إن إخوتك سيدرسون في جامعات لندن، وسيتخرجون أطباء وباحثين، وأنت بالمقابل ستملكين الملايين، إذا وضعت يدك في يدي، وأنا الآن معجب بك، ومرتاح لجمالك وألقك، والضياء الذي يشع من عينيك، وقد يتطور هذا الإعجاب إلى حب، وإذا بادلتني شعوراً صادقاً، فربما ترتبط بحب ليس له مثيل، حب بني على العاطفة والعقل والمصالح المتبادلة، فهو ثابت الأركان لا يتزعزع.

- أنا أيضاً معجبة بك برغم فارق السن الذي لن يقف عقبة، فأنت تعرف كيف تقرأ المرأة.

- المرأة التي لم أعرف كيف أقراؤها خانتني، وجعلت مني زير نساء، غايته الانتقام من كل امرأة، إلا من تلك المرأة التي خانت وهربت إلى المجهول.

حدثها قصته مع المرأة التي كانت أول حب له وعن حياته كلها، وتذكرت كلماته عن نقطة الضعف فأشفقت عليه، وظنت أنه ضحية وليس جلاداً، فقررت أن تمشي معه إلى آخر المشوار، وليكن ما يكون.

عندما خلت إلى نفسها قالت: أنت تغامرين بمبادتك يا نور الصباح، لقد تركت خطيبك الذي تحبين من أجل مستقبل إخوتك، وهذه بطولة وثبات على المبدأ وحفظ للأمانة، فكيف تتأمرين على الحاج عبد القادر، الذي انتمنك وشاركك من دون دفع أي مبلغ في شركته.

قالت لها بطانة السوء في داخلها ولكن عباساً هو الأذكي، والخبير المجرب، والأسرع، إذا لم تنضمي إليه فسيسعى لدى عبد القادر فتطردين، إن هدفك نبيل وهو تعليم إخوتك إلى آخر المراحل، ورعايتهم كام وكاب أيضاً، فالقدر شاء لك ذلك، وإذا كانت الوسائل قدرة فسيشفع لك الهدف النبيل.

أقنعت نفسها بذلك بعد صراع مرير مع النفس.

في اليوم التالي طرح عباس قليلاً من بضاعته المهربة في المتجر، ثم اتصل بالمحامي الذي وثق عند الشركة وأخذ منه موعداً، ووصل إلى مكتبه في

الموعد، فرحب به المحامي ودعاه للجلوس.

قال عباس:

- هل من الممكن تعديل عقد الشركة؟

بالطبع عند توافق كل أعضاء الشركة على التعديل، هل تريدون التعديل؟

- في الحقيقة اعترضت مشكلة الأرض التي سيبنى عليها المصنع، ما

وضعها بالنسبة لرأسمال الشركة؟

- ستكون ملكاً للشركة، وتحسب كرأسمال عيني، وحصصكم فيها بحسب

رأسمال كل واحد.

- في هذه الحالة سأكون أنا ونور الصباح مغبونين، لأنني حصلت على أرض من البلدية في المنطقة الصناعية، بثمن زهيد جداً، وبمساحة عشرة هكتارات وبالتقسيط المريح، بمعرفة صديق لي في البلدية، ولولا المعرفة لما كان الحاج عبد القادر قد حصل على هذه المساحات، وقد أقنعنا رئيس البلدية بأننا سننفذ مصانع

أخرى مجاورة للمصنع الأساس، مثل محالج ومصنع زيوت مستخرجة من بذور القطن، كل هذا بجهودي، والحاج عبد القادر يغط في نوم عميق.

- ما المطلوب ؟

أن تكون الأرض بحصص متساوية للشركاء الثلاثة، ويدفع كل شريك

حصته من ثمنها من ماله الخاص، وبالتقسيط.

- علينا ذكر ذلك في العقد مجدداً.

- أرجوك يا أستاذ، أن تقنعه بعدالة مطلبنا إذا سألك، وبالمناسبة ارتايت

أنا ونور الصباح أن تكون محامي الشركة لقاء راتب شهري عال.

فهم المحامي الرشوة المقنعة، وأنه سيتقاضى في الشهر ما لا يقل عن خمسين ألفاً إلى ما شاء الله، ففرح في سره لهذا الرزق، الذي هبط عليه من دون

سعي منه، فقال:

- لا مانع عندي برغم وقتي الضيق وقضاياي الكثيرة.

فهم عباس تعززه وترفعه بغريزة التاجر النبيه، فقال:

- لن ننسى لك هذه التضحية يا أستاذ، ومن جانبنا لن ننسى أفضالك وأتعابك.

انتظر مني الدعم والإقناع.

شكره وانسحب، ولما رجع إلى المحل وجد نور الصباح، فأخبرها بما عمل

فأثنت عليه وقالت :

- الاجتماع في المقر غداً، وسنطرح هذا الموضوع، ومن جهتي فقد جالست عبد القادر وأسر لي بحبه، ولكن بتورية وخجل، فقلت له: ليتني عشت بداياتك

وعرفتك من قبل، فمثلك قليل بين الرجال.

- حسناً فعلت، وماذا قال لك؟ نظرة من عينيك تساوي كنوز الكون، بك

عثرت على أثمن جوهرة، وأغلى عقد. ماذا كان جوابك؟

- تضاحكت بغنج ولم أنيس بكلمة وإنما نظرت إليه نظرة ذات معنى.

يا لك من ذكية حفظت الدرس بسهولة. طوبي لك.

في مقر الشركة، وبحضور الحاج عبد القادر ونور الصباح وعباس، عقد اجتماع للشركة، ووضع جدول الأعمال، وكان الشركاء الثلاثة قد تقاسموا

الأعمال فيما بينهم:

المدير العام للشركة هو الحاج عبد القادر لأنه يملك أكثرية الأسهم.

. عباس تولى أمانة السر والإدارة الداخلية وشؤون الموظفين.

. نور الصباح تسلمت الإدارة المالية والحسابات وأعمال المصارف ومتابعة بناء المصنع.

أهم نقطة في البحث كانت الأرض المناسبة والواسعة لإقامة المصنع، وعند هذه النقطة كان مربط الفرس. لقد درسها عباس بعناية وعمل لها منذ أيام، وعرض الفكرة على المحامي وأغراه بعقد توظيف لصالح الشركة، ولكن الآن يجب إيصال الفكرة، بإقناع وتلقائية ولهجة ذات مصداقية، إلى الحاج عبد القادر، فقال:

- إنني يا حاج عبد القادر، أعمل منذ أسابيع في البحث عن أرض تناسب المشروع على المديين القريب والبعيد، فوجدت أن المنطقة الصناعية أفضل مكان، التوافر الكهرباء والخدمات والبنية التحتية، ولكن المساحات المسموح ببيعها محدودة ونحن تلزمنا مساحات كبيرة، لأننا قد نقيم مستقبلاً مصنعاً لحلج القطن، ومصنعاً لغزله ومعملاً إضافياً لاستخراج الزيوت من بذور القطن، وإذا كانت المعامل قريبة من بعضها فسيوفر ذلك علينا عبء النقل ومصروفات التحميل، وأجرة السيارات واستطعت بمعرفة أصدقاء منتفذين لي في البلدية وبدفع

المعلوم أن أحصل على عشرة هكتارات تباع لشركتنا نفسها، على أن تكون حصص الشركاء متساوية، أي

أن لكل منا ثلث مساحة الأرض، وستدخل هذه الأرض كرأسمال عيني للشركة. وهنا سأله الحاج عبد القادر عن معنى الرأسمال العيني فقال:

- لتستدع المحامي الذي كتب لنا عقد الشركة، ليشرح مضمون ذلك ونستأنس بأقواله، وعلينا منذ الآن أن تكون تصرفاتنا قانونية ومدروسة. ورفع سماعة الهاتف واتصل بالمحامي نورس فقال:

- سأكون في مقر الشركة بعد ربع ساعة.

ولما حضر المحامي شرح الموضوع أمامه، وكأنه لا يعرف عن الأمر

شيئاً فقال:

- الرأسمال العيني هو الأرض أو الآلات أو البضائع، وبالمجمل هو كل

مادة ذات قيمة تخصص لصالح الشركة.

قال الحاج عبد القادر :

- يقول عباس، إن هذا المال العيني يجب أن يوزع بالتساوي كرأسمال

مدفوع من الشركاء الثلاثة.

فأجاب المحامي:

- نعم، هذا صحيح، ولكن على كل شريك أن يدفع ثلث قيمة الأرض من

ماله الخاص.

قال عباس:

- هل يقتضي ذلك تعديل عقد الشركة.

نعم، وسأتكفل أنا بذلك.

قال عباس:

- بالمناسبة، وكوننا موجودين في اجتماع رسمي، ولدينا جدول الأعمال ومعنا المحامي الأستاذ نورس، اقترح أن يكون الأستاذ نورس محامياً للشركة طيلة وجودها، يرافع في دعاويها، ويحضر اجتماعاتها إذا قبل ذلك، على أن يتقاضى راتباً شهرياً مناسباً.

سر المحامي نورس في داخله سروراً عظيماً، ولكنه كتم سروره، بل عبس

وقطب جبينه وقال:

- إن وقتي ضيق ومحدود، ولكنني إكراماً لكم ولشركتكم، أوافق على هذا المقترح، ولكن براتب شهري لا يقل عن خمسين ألف ليرة سورية.

نظرت نور الصباح إلى الحاج عبد القادر وهزت برأسها للأسفل، وكأنها تقول له وافق يا حاج عبد القادر، وانتهز الفرصة فقد وافق الأستاذ، فلا تدعه

يتراجع وتحت تأثير نظراتها اللامعة المشعة الضاحكة ذات المعنى الذي يقطر حياً وعملاً، وافق وهو يبتسم لها.

وصاح عباس:

- الجميع موافقون، ثبتوا هذا في محضر الاجتماع.

وكانت الفقرة التالية في جدول الأعمال، تعيين الموظفين الذين سيشغلون إدارة الشركة ويسيرونها، فبادر عباس، وقال:

- إذا وافقتم فإن عندي أناساً ذوي خبرة وشغلوا مناصب في مؤسسات وشركات.

من هؤلاء ؟ قال الحاج عبد القادر.

- محاسب الإسكان الذي استقال، واسمه سمير رشدي، وهو أحد أصدقائي ورئيس السكرتارية في شركة العنكبوت الأحمر واسمه مفيد الداقر، وهو صديقي أيضاً، ويبقى موظف ثالث ندع اختياره للأستاذ نورس ليعطينا اسمه في الاجتماع القادم.

قال الأستاذ نورس :

- انتقاء الأستاذ عباس للموظفين انتقاء موضوعي بامتياز، لأن الخبرة أهم من الشهادة، ولئن نأتي بموظف تعرفه وسبق أن اختبرته وتعرف سمعته أفضل من أن نأتي بشخص مجهول قد ينفجر كلغم في يوم ما.

هز عباس رأسه موافقاً، وكذلك فعلت نور الصباح، فاضطر عبد القادر للموافقة، وختم الاجتماع بالتأكيد على أن يشتري عباس في الغد الأرض من البلدية، وأن يعدل الأستاذ نورس عقد تأسيس الشركة بما جرى الاتفاق عليه.

ثم قال عباس:

من الغد سيحضر الموظفون الجدد، وسيتسلمون مهام عملهم، وعلينا أن ندرس بناء المصنع بالسرعة القصوى.

بمساعدة الأستاذ نورس، نفذ عباس مخططه بأقصر السبل، وأصبح ونور الصباح يملكان ثلثي رأس المال العيني للشركة، وتطلع بدهاء إلى ثلثي رأسمالها النقدي، ولكن من أين له السيولة؟

قال في نفسه: لدي البضاعة المهربة وقد بعث منها بمليون، سأبيعها في فترة زمنية لا تتجاوز الأشهر الستة، وأفصح النور الصباح عن فكرته وهما يجلسان ويستمتعان بالقهوة، فقال:

- علينا الا نبيع من بضاعة الحاج عبد القادر النظامية أي قطعة، وسنقصر البيع على بضاعتنا المهربة التي اشتريناها، ونجمع المال، وسأعطيه الآن المليون الذي جمعته.

- إذا بعت كل بضاعتك فماذا تنوي أن تفعل ؟

- سأشتري الدكان من الحاج عبد القادر ، بل سأستعيدها، ولا بد من وضع خطة تشتركين فيها، تقولين له ورثت أرضاً فارتفع سعرها وسأسعى لبيعها، وبعد فترة تقولين لقد بعتها وقبضت الملايين تقنعينه بتوظيف الأموال في الشركة عندئذ تعدل عقدها ليصبح الرأسمال النقدي للشركاء الثلاثة متساوياً.

وأنت، هل ستبيع بيتك فعلاً؟

نعم، لأنني سأطلق زوجتي. -

هل أنت مجنون وتعي ما تقول؟

- لا لست مجنوناً، إن زوجتي عاقر ، وأريد أن أنعم بعاطفة الأبوة.

- سمعتك يوما تقول للحاج عبد القادر أن لك منها ثلاثة أولاد.

نعم، قلت هذا لأظهر له بأني معيل، فيرق لحالي ويوظفني، حقيقة

الأمر، لا ولد لي الأن زوجتي عاقر.

يا لمكرك الخبيث ودهاتك المدهش

- إنني أسخر ذلك للخير.

اي خبر ؟

أقصد الخيري وخيرك، عندها يدخل إخوتك جامعات الغرب.

انت يا عباس جدير بالإعجاب، أعجبني ذكاؤك وتدبيرك وفهمك للنفس البشرية، ولكن علينا أن لا نسخر ذلك للشر.

اي شر تقصدين؟ عبد القادر أنجب ولدين وعلمهما، ثم زوجهما فلنجبا له الأحفاد. اقتنى القصر والسيارة الفخمة، ومازال يبحث عن السعادة والفردوس المفقود، برغم كل ذلك ليس لحياته معنى، قليل علينا إن شاركناه ماله وشاركنا هو بعقلنا وفكرنا، يعنى المال مقابل العقل والأفكار.

كان عباس يكذب فحقيقة الأمر أن زوجته قد أقامت ضده دعوى تفريق لأنه عقيم، وهذا ثابت بالتحليل القاطع. كانت امرأة مثقفة ذكية، وإليها يعود الفضل في تكوين ثقافته وتعلمه أصول التفكير والمنطق. ربما كان بالفطرة يتمتع بذكاء شيطاني ومكر صقله السوق، لكن ذلك لم ينفعه مع زوجته التي سعت إلى طلاقه، فتحول إلى نور الصباح كبديل أفضل، التي بدورها وجدت فيه الظهير القوي والمرجعية التي افتقدتها.

تسلمت الشركة الأرض في المنطقة الصناعية، وبدأ العمل في البنية التحتية للمصانع. كان الحاج عبد القادر يدفع النقود، وقد هاله حجم المبالغ المطلوبة فتمنى لو لم يغامر بالعمل، وقد خف مردود الدكان لأن بضائع عباس هي التي تباع فقط، وبضائعه مع فواتيرها تغطي البضاعة المهربة، وتعاون كادر الشركة الموالي لعباس، الذي اختاره بدقة فائتمر بأمره. المحاسب زور

الفواتير وأضاف إليها، ورؤساء الورش قللوا المواد فأضيف ثمنها إلى جيب عباس أضعافاً مضاعفة، والحاج عبد القادر لا يفقه من الأمر شيئاً، وما عليه سوى الموافقة، ولقد ساعدته نور الصباح مساعدة كبيرة، وشدت أزره بعد أن أملها بمستقبل زاهر، ففي كل فكرة يطرحها تردد كالببغاء: صدقت يا عباس وهكذا أصبح عباس هو الشركة، والشركة هي عباس، ولم يبق للحاج عبد القادر إلا وجه نور الصباح الباسم دوماً، ودفع النقود للمحاسب، دون تردد أو تذمر هذا المحاسب لا يشبع، فكلما أعطاه مبلغاً كبيراً قال هل من مزيد.

مرت شهور والعمل جار، ولم ينفذ عباس فكرته ببيع البيت وشراء الأسهم، لكنه باع بضاعته كلها، واستمتع بالأرباح الهائلة منها، وكرر العملية بوساطة مهربين عدة مرات، فوجد أن أموال التهريب أغزر من مال الشركة وإنتاجها.

قالت له نور الصباح

- هل أقول لعبد القادر ورثت أرضاً وبعتها فملكت مالاً؟

- لا تقولي له شيئاً الآن، فقد تغيرت الخطة، دعينا نستنزف ماله كله عندها هو من سيطلب النقود منا سنكون يومئذ في الموقف الأقوى فتفرض شروطنا من مبادئ التخطيط والمرونة، غيري بعض بنود الخطة حسب الموقف.

وزار عباس المصارف؛ ليسأل عن القروض فكان الجواب: (قبل إقلاع المصنع سيكون القرض بعشرات الملايين، أما إذا أقلع وأنتج فقد يصل المليار). لعب الطمع في رأسه فبيت خطة، لكنه أراد أن يتسلى في الوقت الضائع وكان قرار الطلاق قد صدر بالتفريق بينه وبين زوجته.

قال لنور الصباح

- ما رأيك أن نتزوج؟

فوجئت بطلبه وأطرقت، وبعد تفكير قالت:

- لا أستطيع الآن بسبب إخوتي فهم في حاجة إلى رعايتي.

- زواجنا لا يمنعك من رعايتهم. تمارس الزوجية ساعتين بعد الظهر لتغدى وننام قليلا، بعدها تغادرين إلى بيتك عند إخوتك، ويكون كل ذلك سراً،

وبورقة عرفية.

- لماذا لا يكون رسمياً في المحكمة؟

لأن ذلك يثير غيرة الحاج عبد القادر، الذي يؤمل نفسه بحبك والزواج ملك مستقبلاً، وربما يصفي الشركة ويطالبنا بعطل وضرر.

- اتركني أفكر في الأمر.

- لا يحتاج الأمر تفكيراً طويلاً ستكونين الرابحة في كل الأحوال، أنت تعانين من كبت جنسي، ولذلك فأنت متوترة في معظم الأحوال، والكبت الجنسي كما بين (فرويد) في نظريته في الجنس والليبيدو) قد يؤدي إلى العقد، ولا بد أنك قد قرأت عن ذلك، وأعدك الا تنجب قبل تأمين مستقبل إخوتك.

- هذا أمر مصيري ولا بد من التفكير فيه ملياً.

لما أوت ليلاً إلى فراشها تزاحمت الأفكار لديها، وكثرت استنتاجاتها المتضاربة فصارت تقلب الأمور على أوجهها المتعددة ثم تساءلت:

القد دفعني عباس إلى الانزلاق إلى هوة لا أعرف مستقرها، ومازال الانزلاق مستمراً، يبدأ الأمر سهلاً بخطوة أولى تتبعها خطوات. الخطوة الأولى عندما قبلت وتواطأت معه على بيع بضاعته المهربة في دكان الحاج عبد

القادر، تبعتها خطوات أخرى، تأمرت معه على سحب البساط من تحت رجلي عبد القادر، وآخر المطاف يريدني خليلة يتمتع بها، ويرميني في سلة النفايات كما ترمى برتقالة نضرة بعد عصرها. أحلامي القديمة نسيتها، والتحضير للدكتوراه أصبح في خبر كان حولني عباس من فتاة ذات موقف ومبدأ، إلى العوب تبحث عن فتات فضاعت التضحية القديمة وتحولت إلى شريكة محتال. هل يكفي أن يكون الهدف نبيلاً لتسوغ لأنفسنا سلوك وسائل قذرة للوصول إليه؟ إن عباساً ذكي، ليس في هذا شك، لكن المؤكد أنه شرير يغوي الآخرين، فيجعلهم أحد أحجار خططه.

تعليلاته جاهزة ومقنعة ومسوغة، وهدفه النهائي الاستيلاء تدريجياً على مال الحاج عبد القادر، يسوغ هذا بأننا نعطيه الفكر مقابل المال، ولكن الحاج عبد القادر يستطيع التوصل للفكر والخبرة والعلم عند أهل العلم والخبرة.

يدفع للخبير فيمده بخبرات مدروسة، وقد ظهرت أفكار عباس لامعة براقة بفعل ضحالة تحركات الحاج عبد القادر وبلادته، وقلة خبرته وتجربته. لقد أقحمني عباس في ما لا طاقة لي به، ودفعني بخبث فانزلقت إلى هاوية غير معروف قرارها.

تفكر ملياً وتطرق كثيراً وتقلب الأمور على أوجهها، فلا تصل إلى حل تذهب إلى مطبخها فتعمل فنجان القهوة، وتلمح الفجر من النافذة، يكاد ينبلج ويتنفس بعد ارتشافها القهوة، تعود إلى نفسها لتقول :

لكن الحياة هكذا تضعنا الأقدار على مسرحها، ولا بد من ارتكاب الأخطاء التي تعلمنا اتخاذ قرارات صائبة، فلم لا أتزوجه اليوم فأكفل مستقبل إخوتي، ربما يكون عباس أفضل من الرجل القادم على مساوئه الكثيرة، فقد خبرته وعرفت نقاط قوته وضعفه، وإذا انتظرت حتى يكبر إخوتي أكون قد دخلت الكهولة، ويكون الشيب قد غزا مفرقي. ربما يكون عباس أفضل من الرجل الذي سيأتي، وقد لا يأتي ذاك الرجل أبداً، فأتحول إلى عانس وأنا الآن أكن لعباس بعض الإعجاب فلماذا لا أتزوجه الآن، واتمتع بالحياة وأنا في ريعان الصبا، وربما وضعني القدر في موضع أحسبه الآن شراً، وغاب عني أنه في حقيقته خير).

لم تستطع النوم طوال الليل، وانبلج الفجر وتسرب ضياؤه فنهضت، وتناولت كأس عصير من البرتقال مع بعض قطع من الجبن، وعادت إلى سريرها القرار ينضج بعد أن كان يطبخ في اللاشعور طيلة الليل، وفي أثناء فترة تداعي الأفكار.

قالت في نفسها :

سأتزوجه سراً، وبورقة عرفية، سأقبل نظرية عباس، ونظرية فرويد وبالنسبة للحاج عبد القادر المليء المكتفي فسيستفيد أيضاً من خبرتنا، وإذا

سرقت صخرة من جبل فلن تؤثر على اتزانه وقوته، وربما يكون القدر قد أرسل لي عباساً ليكون مرجعيتي في هذا الزمن القاحل. المثالية والتفكير الضحل جعلاني أطرد خطيبي، وربما كنت قد رزقت منه ولداً. وبعض المثل مومياءات

محنطة هزمها السوق، إذا تسلح بها المرء أحياناً فقد أظافره وأنيابه، وفي المدارس والجامعات، لا يعلموننا كل تفاصيل الحياة أو زواريبها، يعلموننا ما يجب أن يكون لا ما هو كائن، فكيف تلعب إذا لم تتقن فن اللعب، أو تتدرب على ممارسته. ولقد تعلم عباس من السوق ومن تجاوزاته على القانون، ما زوده بأفكار واقعية تصلح للتطبيق في غابة ليس فيها إلا غالب أو مغلوب، وتندر المعاملات المتكافئة فيها أو الأداء المتعادل، لأنه إذا حدث شيء من هذا القبيل انتقى الربح الفاحش والربح الفاحش السريع هو المطلوب).

ويوماً ما قال لها عباس:

حتى نصل إلى الأرض الخضراء لا بد لنا من الخوض في الوحل، حتى نصل إلى التطهر لا بد من الاستحمام في عين الخطيئة الحملة). فهل كانت المروج محاطة بالمستنقعات ويصعب الوصول إليها إلا بالخوض في الوحل؟ وهل كان التطهر صعب المنال فلا يتم إلا بالتلوث. وإذا أراد المرء أن يكون حسب عباس - فعليه أن يتمرغ في النتن. وهل أفكار عباس التي متطهراً تبدو للوهلة الأولى جذابة مغرية ومستنبطة من أرض الواقع؛ هي في جوهرها امتداد للعقم الذي عاشه في حياته الماضية.

عيش وضباب يلفان الأفاق أمامها، فمن يجلي بصيرتها ويرفع عنها الغطاء، وسيمضي كثير من الوقت لينقشع الضباب ويزول الغبش.

لما ذهبت إلى الشركة صباحاً استقبلها الحاج عبد القادر، ووجهه يقطر رغبة وحباً، لاحظ اصفرار وجهها الذي بدا كقمر خسف لتوه، مع أنها غطته بزينة خفيفة.

قال لها :

- هل أنت مريضة؟

- لا لست كذلك.

حلمت بك الليلة الماضية.

خير، بماذا حلمت؟

- كنا معاً نجلس على مرج اخضر وشي سطحه بأزهار بيض ناعمة قرب غدير صاف، وكانت طيور القطا تحوم فوق الغدير.

- ربما تعني الطيور في الحلم أن ثمة أخباراً سارة.

كان أجمل حلم أشعرني بالسعادة فتمنيت أن تكون سعادة أبدية.

ليس في الكون شيء أبدي، الكون نفسه زائل في يوم ما.

تجرأ فقال :

- أحبك وأخشى الفراق.

- لنستمتع بالحاضر ونترك المستقبل للغيب.

حاولت تغيير الموضوع بلطف ولباقة.

- ما أخبار العمل ؟

- العمل يسير ببطء لكن المصاريف تتصاعد بصاروخ، وتلتهم ثروتي التي كدستها عبر سنين طويلة.

والحل ؟

- ربما أبيع المتجر مع بضاعته فقد أصبح الوارد قليلاً، والربح لا يكاد يسدد المصاريف.

ولأول مرة تأخذ زمام المبادرة وتتصرف من دون تعليمات عباس فقالت:

- لقد ورثت أرضاً واسعة دخلت التنظيم فارتفع ثمنها، وأنا ساعية الآن

لبيعها وشراء عقار بثمنها، فإذا أردت يا حاج عبد القادر ثمن الأرض خذه، ترده لي حين تريدا إن كنت في حاجة إلى المال.

ذهل من عرضها وانتشى وظن أنه الحب فقال:

- لا بد من مقابل سأبيعك المتجر بمحتوياته وأراعيك بالسعر .

ها هي ذي الأمور تأتي مسرعة على رجليها كطائر حجل يتجه إلى صياده بسرور، ولا يعرف أنه سيلاقي حتفه بعد قليل. أين أنت يا عباس لتسمع ما يقوله الحاج عبد القادر، ضاحكاً مسروراً، وكأنه ينقل متجره من يده اليمنى إلى يده اليسرى، التلميذة فاقت أستاذها.

ولما التقت بعباس، وقصت عليه القصص، قال لها :

- أنت الذكاء المتجسد في امرأة جميلة علينا استثمار الخدعة، لكي يخفض ثمن المتجر لنناله بثمن بخس، وأن يتداخل الحب والغنج والدلال بعملية المفاصلة والشراء، عندئذ نكتب العقد باسمك فوراً، ومن بعدها أنقله إلى اسمي في السجل العقاري، أما مكافاتك أنت فستكون ذهباً والماساً وحباً وزواجاً.

أسابيع... وطار المتجر من ذمة الحاج عبد القادر لقاء ثمن بخس، هو بعض أرباح عباس من البضائع المهربة التي بيعت في متجر الحاج عبد القادر نفسه اعترض سليمان وقمر الزمان على بيع المتجر، فقال الحاج عبد القادر محتداً:

- أنا أعرف مصلحتي، وسيعوض لي مصنع الألبسة القطنية أضعاف ثمن المتجر.

ولما قال له ابنه الدكتور سليمان

دعني أشرف على حسابات الشركة وأراقب سير العمل فيها.

قال:

- لا أريد أن يكون ذلك على حساب عيادتك وراحتك وعنايتك بأطفالك وعندي محاسب أمين كما أنني أثق بعباس.

ولكن الثقة في غير محلها غباء يتبعه ندم. وقد استجر عباس أضعاف ثمن المتجر من سرقة المواد وتزوير الفواتير بعض الناس مرشح للخيانة دوماً،

ولو كان فيما مضى يدعي الصداقة، وعلى الرجل الحريص أن يكون يقظاً لأموره، مراقباً لعماله وموظفيه، حتى شركائه، ولكن الحاج عبد القادر قد تعود الركون والتثاقل إلى الأرض، وكان يحلم وهو مفتح العينين، ومجرد من البصيرة بالحب الموعود، مع أن الحب يدفع إلى اليقظة، ولكن حب الحاج عبد القادر كان من نوع خاص، إنه عقدة السنين الضائعة.

مرت الأيام مسرعة، ونجحت سميرة درويش في الثانوية واختارت كلية الحقوق، وكانت قد تعرفت في مقهى الإنترنت الدكتور زياد النقرور، وهو أكاديمي يدرس في الجامعة وفي كلية الحقوق نفسها هو الذي نصحها باختيار هذا الاختصاص، وأصبحت تجمعهما صداقة بريئة ولكنها متينة الوشائج، أعجب بعصاميتها وقوة إرادتها فأراد مساعدتها في تلمس مستقبل ناهض.

يأتي كل يوم إلى المقهى فتضيفه القهوة ويتبادلان الأحاديث والأفكار، لقد أصبح لها مرجعيتها.

مرة سأل عبد القادر أختها ناريمان، بعد أن خرج من اجتماع في جمعية

حفظ النعمة:

- ما أخبار سميرة؟

- لقد أصبحت طالبة في كلية الحقوق تنجح بتفوق.

تعجب الحاج عبد القادر، وأطرق قليلاً ثم قال:

- لقد مرت الأيام سريعاً. من قال إن سميرة ستدخل كلية الحقوق، وربما تصبح محامية في يوم ما، سلمي عليها وأنا دوماً جاهز للمساعدة.

تركت سميرة مقهى الإنترنت وقد عرفها الدكتور زياد النقرور بالمحامي الشهير حكمت السعداوي، وأوصاه بأن يوظفها في مكتبه مديرة مكتب، وطابعة لمذكراته، أخبره قصتها وأوصاه بها خيراً.

أبدت سميرة جدية وعملاً متقناً في مكتب حكمت السعداوي، فأعجب بها فصارت تطبع المذكرات، وتتفهم محتواها، وتسأل الأستاذ عن فحوى القضايا

برمتها، فيشرح لها ويعطيها الأسرار، وقد استفادت من ذلك فائدة عظيمة، فمن جهة بدأت تدخل عالم المحاماة، وهي لم تتخرج بعد، ومن جهة أخرى اطلعت على العالم المظلم والماسي الفظيعة، فرأت أن مأساتها مع زوجها السابق فاروق، أقل من قضايا أخرى أشد مأساوية. شكرت ربها أن وضع في طريقها مدرس الحاسوب، وبقية الأشخاص الذين أوجدهم القدر للمساعدة في تحقيق هدفها. شكرت ربها أنها بقيت نظيفة طاهرة، رغم كل الضغوطات والمغريات وأنها لو انساقت الرغبات الأرملة التي عملت عندها أو حتى لنزوات الحاج عبد القادر الشهوانية لسقطت في حماة الفسق والفجور، ولرماها بعد فترة من الملل والتقزز، كما ترمى النفايات... ربما ساعدها القدر، لأنها بقيت نظيفة طاهرة فاكتشفت نقاط قوتها، وعملت عليها.

٩

كان عباس يقبع في المتجر قلقاً متوجساً، ينتظر قدوم نور الصباح عندما أطلت بابتسامة نضرة ووجه مشرق، أدرك أن غيوماً ستمطر على أرض

عطشى تاقت طويلاً للمطر ، فهب واقفاً وسلم عليها وقال:

- هل وصلت لقرار ؟

نعم، وصلت، ويبدو أنك محظوظ.

جرها من يدها إلى ركن قصي في المتجر ثم ضمها إليه وطوق خصرها، أراد التهام شفتيها فتمنعت فلم يظفر إلا بلثم الخدين. وعندما تملصت منه قال:

- أحلى خبر في حياتي كلها.

ابتسمت بخفر خالطه ارتياح وغنج وأطرقت بنظرها إلى الأرض هنيهة ثم رفعت عينيها إليه وقد انبجس منهما ألق ساحر، وتضرجت الخدود بحمرة

الخفر الناعمة، ثم قالت:

- لا يصح أن نقوم بمثل هذه الأفعال إلا بعد كتب الكتاب.

- سيتم ذلك بعد أسبوع، تكون جدران البيت في إثنائه قد طليت بالألوان و فرشت غرفه بالأثاث الجديد، يبقى علينا بعد ذلك شراء الذهب والألماس، أما

الثياب فعليك أنت اختيارها وحدك.

باع عباس أثاث بيته القديم وأحضر الدهان ومهندس الديكور، فعملت ورشات العمال ليل نهار، وانتهى ذلك في أيام، وفي يوم واحد كان الأثاث

الجديد، يزين البيت فقال لها :

- لقد أصبح البيت لامعاً وجاهزاً من مجاميعه)، علينا اليوم شراء الذهب

والألماس فهل تذهب إلى الصانع؟

لا، الذهب بنفسك واختر ما تراه مناسباً، فلا أريد أن يرانا أحد معاً.

ذهب إلى الصائغ واشترى حلياً ذهبياً أنيقاً متعدد الأشكال، واشترى اللؤلؤ، وأكثر من الألماس، وقد كلفه ذلك كثيراً فلم يندم لأنه يريد أن يحظى برضاها، وعندما أراها في اليوم التالي ما اشترى من حلي وجواهر، دهشت

وفرحت ثم قالت :

- لقد تكلفت كثيراً يا عباس، فلم التبذير ؟

- أنت تستحقين كل ثروتي وفوقها مثلها، وأبقى مقصراً إزاء هذا الجمال الفائن والعقل الراجح.

أعطاها رزمتين من النقود وقال:

- اشتري ما تحبين من ألبسة، وهذا مفتاح البيت، ضعي المشتريات في الخزانة المخصصة.

مضى أسبوع وجهز عباس الترتيبات كلها، فقالت لإخوتها إنها ستسافر

إلى طرطوس العمل.

حضر عند الساعة السادسة مساء كاتب العقد ومعه شاهدان، كان يلبس

جلباباً ويضع طاقية بيضاء مقلداً هيئة الشيوخ هو في الواقع يعمل سمساراً في أحد المكاتب نهاراً، ويكتب العقود العرفية ليلاً. كتب هذا الشيخ المزيف العقد

واجرى شكلياته ببراعة أبدت خبرة، ربما أوقعت كثيرات من المغرر بهن في مشكلات لا تنتهي.
وقعت نور الصباح الورقة بصمت شابه قلق، وفعل عباس مثلها لكن بمكر وسرور مخفيين، ودعا عباس الجميع لتناول الحلويات في غرفة

مجاورة فأكلوا بشراهة ملفتة، ثم انصرفوا بعد أن قبضوا النقود .

قال لها :

- الآن بدأ مشوار السعادة، فلننهل من الحب.

وقبل أن يكمل جملته قالت:

- أريد نسخة من العقد.

- هي نسخة واحدة لم يترك لنا الشيخ غيرها، سنضعها في درج الطاولة وتبقى في هذا البيت. إن وضعت عقداً في حقيبتك اطلع عليه إخوتك وربما رأه الحاج عبد القادر بالمصادفة، أما إن بقي في درج الطاولة فلن يمسه أحد، وهذا بيتي وبيتك، فماذا تقولين؟

أجابت على مضض اتركه في الدرج وأمري إلى الله.

كان عباس قد جلب عشاء جاهزاً من مطعم فاخر، وجهز طاولة عليها شموع وورد ووعاء فضي أنيق، فيه بعض قطع الثلج مع زجاجة (مشروب)

ولما رأت هي ذلك صرخت صرخة دهشة وغلج قائلة:

ما أروع هذا! ولكن لماذا الزجاجة؟

- لتكتمل رومانسية المناسبة ويزول الخجل.

ادار جهازاً وكبس زراً فانطلقت موسيقا (رومانسية ناعمة.

قال لها :

- اذهبي وبدلي ثيابك.

في غرفة النوم ارتدت ثوب سهرة أسود مموجاً بصدف براق متلألئ مكشوف الظهر، فازدادت فتنة وجمالاً. دهش عباس لما رآها تعود إلى مجلسه وقد انعكست أنوار الشموع على وجهها وثوبها فازدادت ألقاً، جلسا على كرسيين متقاربين، وصب في قدحين من الكريستال السائل الناري من الزجاجة، وقدم أحدهما إليها ليشرب نخبها.

فقالت:

- لا أشرب المسكر .

- هذا ليس مسكراً، وليس فيه إلا نسبة ضئيلة من الكحول ترخي الأعصاب وتبعث على البهجة، ولم يكن أمامها خيار فرفعت الكأس مثله وشربا نخب زواج سعيد وحب دائم.

كان عباس يكتب كعادته دوماً، فنسبة الكحول في المشروب كانت مضاعفة وهي ربما أدركت ذلك لاحقاً من الخدر الذي غزا أعصابها، رشفت جرعة خفيفة الذعت لسانها، وعاودت الكرة فدب الخدر في الأعصاب، وانسحبت الأنا العليا

فنعما بغياب العقل. قالت له :

يا له من شراب لاذع.

- إنه إكسير الحياة، يفرح قلب الإنسان ويطلق هرمون السعادة.

شربت جرعة كبيرة هذه المرة وقالت ضاحكة:

- يا لك من سكير مجرب وهذه مزية أخرى تضاف إلى سجاياك الشيطانية.

أشربه فقط عندما استحضر الشياطين لحبك الدسائس، والإيقاع بالمغفلين

فاشربي منه وأكثري.

شربت المزيد فتوهج خداها، واشتعلت النيران في جسدها، ناولها قطعة شواء بالشوكة وقربها من فمها فالتقطتها بأناقة، وناولته بدورها سيخاً من الكباب (فازدرده) بسرعة كتمساح ضحكت لفعلته فجاراها بضحكة أكبر وتلاشى الخجل، وضع يده

على ظهرها العاري وكان حاراً ناعماً، فتذكر المخمل المهرب الذي جلبه إلى متجر الحاج عبد القادر، وباعه كأنه حشيش مخدر، وبعد لحظات من الحنان والملامسة راحا يرقصان على أنغام الموسيقا متجهين إلى غرفة النوم، وصلا حافة السرير، وأخذ يعربها مبتدئاً من أقراطها فاتحاً سحاب فستانها الأسود، فانهار الثوب إلى الأرض ولاح ضياء وبهاء من جسد غض تجلى ... كانت لحظة فاصلة في حياتها نقلتها

من ضفة إلى ضفة، ثم ألقاها فوق السرير بحركة عنيفة، واندس معها تحت اللحاف وكانت الخمرة قد أخذت منهما كل مأخذ، وغاب العقل، لتبرز الغريزة مع الأمواج الحارة، والتهم شفة حارة زال صباغها، ولثم عنقاً مندى يتاوه، وصدراً يرتج ويمانع.

حاولت بدورها أن تمانع قليلاً لكن الخمرة أطاحت بها، فاستسلمت بسهولة ولم يجد عباس عناء في عزفه على الجسد الغض والصدر البض، وكأنه كان يحلم ولم يصدق حتى تلك اللحظة أنه استحوذ عليها وامتلكها. ثم همس لها بصوت مخمور متهدج

لقد خططت لهذه اللحظة منذ أول دقيقة رأيتك فيها، الآن وقت القطاف

لقد قطعت فاكهة حلوة، وظننت أني في جنة الخلد مع حورية حسناء.

قالت وكأنها تتكلم في نومها :

يا لتخطيطك الرائع، لأول مرة أشعر بالدفء اللذيذ، وانتشي بخمرين كانني زهرة تمتص النحلة رحيقها.

وغابا في نوم عميق.

تسلل الضياء في الصباح متسرياً عبر النوافذ وفتحات الستائر، فاستيقظ عباس من حلمه ومن أروع ليلة قضاها في حياته عندما انزلق من السرير استيقظت على حركته، فلاحظ انفتاح الجفون، وبسمة من الشفاء الحنون، ومن فوره ذهب إلى المطبخ لإعداد القهوة، فأعدها وحملها بصينية مع فنجانين وبعض الحلويات، وكانت قد استيقظت تماماً.

قال لها :

- صباح مبارك يا حبيبتي

فركت عينها اليمنى بيدها ثم قالت:

- كم الساعة الآن؟

- الثامنة.

ينتابني صداع في الرأس قوي.

- سيزول كل ذلك بعد ارتشاف القهوة .

دلقت فنجان القهوة في جوفها دفعة واحدة ونهضت إلى الحمام وهي تقول:

- لتستحم وتلبس ثيابنا المعتادة ونذهب أنت إلى المتجر، وأنا إلى الشركة حتى لا يكتشف عبد القادر غيابنا فيستنتج ما يستنتج.

قاما إلى الحمام واستحما ولبسا ثيابهما العادية، وخرجت من البيت قبله

ثم تبعها.

وصلت الشركة وكان الحاج عبد القادر في مكتبه ينتظر مجيئها بفارغ ره لأنه قرر مجازفاً أن يلقي إليها بأمر طالما فكر فيه وكبته، وها هو ذا الصبرة

الآن يفيض فلا بد من البوح

دخلت مكتبه محيية

- صباح الخير يا حاج.

- صباح الخيرات، وأهلاً بالنور الذي طل، وبالقمر الذي هل، ولكن لطفاً احذفي كلمة (حاج) التي تسبق اسمى فقد الصقها الناس بي إلصاقاً، هي ليست بلقب علمي أو أكاديمي أو رتبة هي بدعة لكل من يؤدي فريضة الحج، فما يزال بعض الناس يحجون فقط للحصول على هذا اللقب، يتوسمون من خلاله إضفاء التقوى والصلاح على أنفسهم، وهم يفتقدون كل ذلك. عندما التقيت بك أصبح هذا

اللقب يوحي إلي بمزيد من الكهولة والكبر، مع أن قلبي في عز شبابه كأني استقبل ربيعي العشرين، فناديني يا نور الصباح، باسمي مجرداً.

ضحكت فازدادت جمالاً وتألقاً، وضاع عبد القادر في غابات البيلسان وسطع أنفه ياسمين له شذا وضياء. بدا له وجهها القمري أكثر إشراقاً وبهجة وسروراً ونضارة، من أي يوم مضى، لم يكن ليعلم ما جرى في الليلة الفائتة!

قالت:

- سأناديك بالأستاذ عبد القادر.

- الأستاذية لقب خطير يطلقه الناس جزافاً على كل رجل بالغ في أناقته وربطة عنقه، أو كان له من العلم شيء قليل، ثم هي حاجز من الكلفة بين شخصين يتصنعان. لم أكن لأحظى بدرجة من العلم رفيعة، ومنذ حصولي على الثانوية، أدخلني أبي الدكان فقبعت في الكهف والسرداب

اي سرداب، وأي كيف؟

- لقد كان الدكان الذي حولته إلى متجر كبير، بمنزلة السرداب والكهف برغم أنه يقع في منتصف سوق الحميدية، وعند تزاحم الأقدام، إلا أنه كان في

نظري أبعد ما يكون عن روح العصر والتقدم العلمي والنماء الروحي، العمل فيه يقوم على المفاصلة والتأكيد على الجودة وربما كانت الجودة مفقودة في بعض الأحيان. وفي عهد أبي كان الدكان مكاناً سرياً لعقد صفقات الربا الفاحش والتدليس على الرب جل شأنه، أورثني ذلك ساماً ومثلاً وفقراً روحياً شديداً التمست التخلص منه عند الطبيب النفسي، ثم تحولت إلى زاوية المتصوف، ولم أظفر بشيء. أخيراً بحثت عنه في الحب والجسد الطازج. كان الناس من حولي يتألمون ويعانون العوز والفقر، فلا أنتبه إليهم، وإذا انتبهت أقول هذا شأنهم، ولا أذكر أنني بفضل مدبرة المنزل سميرة درويش قد تلمست وعياً اجتماعياً وروحياً لم أعهده من قبل هي إنسان بسيط وحزين، لكنها أعطت من حزنها ومأساتها دفقة روحية شحنت كياني، لقد عانت ما عانت وما زالت

مؤمنة بالحياة والإنسان يضع سره في أضعف خلقه كرهت المال فتبرعت الجمعية حفظ النعمة بمليون.

قاطعته قائلة:

- هل كانت فكرة التبرع بالمليون بإيحاء من عباس وتشجيع منه.

- لا، لم تكن فكرة عباس، كانت ابنة وقتها بدافع داخلي منهم، لم أعرف إلى الآن مبعثها، لكنني لما تبرعت بالمليون اعترتني يومها نشوة أو لأقل صعقة إيجابية، ردتني إلى إنسانيتي التي كانت تتلاشى، لكن عباساً سمع بما أقدمت

عليه فحبذه وثمنه.

أسفت للمقاطعة فتابع:

- لم أسافر إلى العالم الخارجي برغم أني استجر بضائعه وأروج له، ولو سافرت لتعلمت كثيراً. لم أشتر الصحف، ولم أقرأها، ولم أهتم بالسياسة وبما يجري من حولي إلا بما يؤثر على مصالحي المالية، ولو قرأت وتنورت لصححت مساري، لم أستثمر الحاسوب، ولو فعلت لأعدت هيكلة حياتي مبكراً، ولما قررت التغيير كان على أن أغشى مجالس العلم والثقافة، وأن أجادل الحكماء وأكون فاعلاً في الحياة الاجتماعية، ضمن مجالي الحيوي.

ثم استدرك فقال:

لقد اتفقت معك على أن تناديني باسمي مجرداً، ولكنك عدت وأضفت إليه كلمة الأستاذ فشعرت بنفسي صغيراً، أليس قفطان جدي وأدور به حول نفسي كدرويش في حلقة ذكر، فلا تناديني يا نور الصباح إلا باسمي مجرداً، فأنت بالنسبة لي حبل أمان ألقي لرجل يغرق في مستنقع.

أنا بهذه الأهمية إذا؟ لا أكاد أصدق.

- أنت النسخ الذي دب في العود اليابس فأحياه، وفي الشجر العقيم، فازهر وحمل الثمار، أنت الحب الذي لا حب قبله ولا حب بعده.

- لا تتوغل كثيراً في الحب، يا عبد القادر، فالحب بحر يغرق فيه أمهر السباحين.

لم أتوغل ومازالت على رمال الشاطئ، أو ربما في الرقراق من البحر، ولكنني سأعترف اليوم أمامك، كما المذنب أمام الكاهن طالباً الغفران، وأضيف إلى ذلك أمراً أرى أن تدرسيه بعناية، وتعملي العقل والمصلحة والعاطفة عند اتخاذ القرار.

يبدو أن الأمر خطير، لقد أخفتني.

- أرجو الا تقاطعيني، وألا تردي بجواب على كلامي، ولا تتخذي قراراً على ضوء عرضي الذي سأعرضه، إلا بعد حين من التروي والدرس.

- سأفعل، لقد أقلقتني.

- إنني أعرض عليك الزواج يا نور الصباح، عرضاً فجاً ومباشراً، ومن دون مقدمات، وأجعل مهرك نصف أسهم القصر، ونصف أسهم الشركة إضافة إلى سيارة حديثة فخمة ملك خاص لك، وإنني لأعرف أنك ستقولين إنك تعيلين إخوة قاصرين، فقدوا الأب والأم، لقد فكرت في هذا الأمر، إنني أتكفل بتعليمهم في جامعات الغرب حتى آخر درجات العلم مهما كانت التكاليف، ومن يوم موافقتك على عرضي هذا إن كل ما أملك لك نصفه أسجله لك رسمياً بيعاً وشراء، لا رجوع فيه، وبالمقابل فإنك تصبحين الزوجة

العزيزة الغالية، التي تدير ثروتي وتعتني بأموري وحياتي، وأدرك أن ثمة فارقاً في العمر بيننا، ولكن الرجل لا يعيبه كبره مادام في كامل صحته وأدائه، وقد من الله على بذلك، وإذا تم هذا الأمر فسيكون لنا في كل عام سفرة إلى الدول المتقدمة، لنرى الحياة وقد تطورت على أسس جعلت من العالم كله قرية صغيرة، لكن الأهم من كل هذا، أن تتابعي التحضير للدكتوراه.

أعرف أنها كانت هدفاً عزيزاً غالياً عليك، وهي وصية الأب الذي رحل، فما بالك نسيت ذلك؟ وعندما تنالينها سيكون لك مقعد في الهيئة التدريسية في الجامعة، وهو منصب في نظري أرفع من أي منصب، وأثمن من أي مال. لقد تجرأت اليوم ففاتحتك بما عزمت عليه، فأعطيني الجواب بعد أسبوع من الدرس والتفكير.

أطرقت دهشة من مفارقات القدر، فلما كانت مع عباس في الليلة السابقة على جمر الحب والنشوة، كان عبد القادر يحلم بتكوين حياة جديدة رومانسية معها، يا لسخرية الأقدار تجهم وجهها برغم محاولتها إخفاء أي تعبير يتم عن حزن أو ندم في أعماق نفسها، وقالت في نفسها :

) ليت هذا العرض، قدم قبل يوم أو يومين يا حاج عبد القادر، فقد قطف عباس العسل من (القفير)، ولن تجد وراءه سوى رمل وصدف فارغين، وتلك اللؤلؤة التي تخيلتها، ما هي إلا جوهرة مزيفة لبلور رديء، لقد أنزلها عباس إلى حماة السوق، هي الآن سلعة يتبادلها تاجران يتنافسان في سوق النخاسة، وهي محتارة، وقد سبق السيف العدل، إن عرضك يا عبد القادر سخي وعاطفي ويدعو إلى الإشفاق في الوقت نفسه، ولا يمكن لفتاة رده أو الازورار عنه، ولكنك لا تدرك من أمرك شيئاً، وكأنك ما زلت في سرداب كيفك لم تهجره، لقد قطف عباس الزهرة وحنطها في إناء من تنك، فبماذا تحلم يا عبد القادر، وقد فاتك القطار وجئت متأخراً وبطيئاً. كان عباس أسرع منك واجرا، وقديماً قيل (السمك الكبير يأكل السمك الصغير) وبرغم أن عباساً كان بالنسبة لك سمكاً صغيراً، قياساً إلى

ثروتك، لكنه كان الأسرع. واليوم انقلبت المعادلة فالأسرع هو الذي يربح، والأبطا هو الذي يخسر) لقد فاز عباس وخسرت أنت. فهل إلى رجوع من سبيل ؟).

راها مطرقة حزينة ساهية فقال:

- قلت لك إنني لا أريد الرد حالاً، وأراك تقلبين الأمور على أوجهها، استعداداً لرد أني سريع.

تقمصت شخصية عباس فهو في مثل هذه المواقف، يغطي كذبة صغيرة بكذبة أكبر منها، تطغى عليها وتمحقها.

قالت:

- يُحب الرجل لأعماله وتصرفاته وقلبه الكبير، أنت تبرعت بمليون الجمعية

الخير، وساعدت المعوزين والملكوبين، وخرجت من سلبيات الماضي، فلماذا لا أحبك يا عبد القادر ؟ عرضك هذا يتم عن فضيلة راقية، ويدل على أن الحب عندك أهم من المال. إنك تفكر في مستقبلي الشخصي، وبالدكتوراه التي أهملت التحضير لها، وترغب أن أعمل في التدريس في الأكاديميات) فلا قيمة لعلم من دون عمل. أنت لم تكن أنانياً، فيا لك من رجل عظيم، وأنا لا أستحقك لأنني ....

وقبل أن تكمل حديثها، جاء الحاجب بالقهوة فقدم لكل فنجانه وانصرف. وأراد عبد القادر أن يغير الموضوع منتظراً الجواب بعد أسبوع، وقد فرح لأن تباشير الموافقة جاءت في كلامها، وفي الحقيقة كانت تراوغ.

سكتت تفكر وقالت في نفسها :

(كذبة تجر كذبة، وعباس الذي دفعك إلى الخطوة الأولى، أصبحت من دوله تهوين من دون دفع، وتعلمت لعبة السوق، وأصبحت جزءاً منه ومن بضائعه، فكم أنت جدير بالشفقة يا عبد القادر، وكم أنت شرير يا عباس، وكم

انت تعسة وضائعة يا نور الصباح.

وبينما هي تغرق في الأفكار كان عباس في المتجر، ينتظر قدومها بفارغ الصبر، وأعد لها مفاجأة ظن أنها ستفرحها، ثلاثة أيام على شاطئ البحر في الرمال الذهبية في طرطوس. لما دخلت المتجر عائدة من الشركة بدت في هيئة جديدة وملامح قاسية، مهما حاول الإنسان أن يخفي حقيقته الداخلية فلا بد أن يظهر شيء منها على السطح، رأى الحزن والانكسار يجتمعان ويختلطان مع الكره والاحتقار، فتساءل في داخله هل حدث مكروه يا ترى وقف مسلماً وقابضاً على يديها محاولاً تقبيلها، سحبت يديها وتراجعت إلى الخلف ثم قالت:

عباس، هل جننت؟ أما ترى الناس يتلصصون علينا.

- اعددت لك مفاجأة سارة.

- مفاجأة لم أعد أطبق المفاجآت

ثلاثة أيام على شاطئ البحر تنعم بالشمس الدافئة والحب الحار.

الغ الحجز، لن أستطيع الذهاب.

تغيرت ملامحه فبدا محبطاً فقال :

- لماذا ؟ هل حدث مكروه ؟

أخي مريض وعلى أن أبقى إلى جانبه.

- هل أحضر له طبيباً؟

جاء الطبيب وفحصه ووصف له الدواء، يلزمه الإشراف والمراقبة.

- اعين له ممرضاً يشرف عليه طيلة غيابنا .

قلت لك لن أذهب، ألا تفهم؟

جاء كلامها صارماً وقاسياً، وتدفق الكذب على لسانها كأنه واقع جعلت عباساً يقتنع بأن أمراً ما قد حدث فما هو يا ترى؟ خرجت في الصباح من بيته مسرورة ضاحكة تضج حيوية وفرحاً، تقفز كأنها عصفورة في أول الربيع، تتهيأ للحب والتكاثر والنسل، فما بالها وقد رجعت من مكتب الشركة متكدرة حزينة؟

بنت له نادمة. قال:

- هل أمور الشركة بخير، وماذا أخبرك عبد القادر ؟

التقيت به دقيقتين، وجاءني هاتف يخبرني أن أخي مريض، فأتيته بالطبيب والدواء.

إذا تلتقي مساء اليوم في بيتنا.

لن تراني قبل أسبوعين، سأتفرغ لأسرتي.

كانت تكذب وقد تعلمت منه الكذب، والكتب كما عرفته، وسيلة للتخلص من موقف تتحاشاه، وليس لديها الشجاعة للمواجهة، والكذاب إنسان جبان، يلود بهروبه قراراً من المواجهة، وهذه الدروب الملتوية، والزواريب العفنة، من بضاعة عباس ومن توجيهاته، وهذه بضاعتك يا عباس، قد ردت إليك.

كانت تريد وقتاً ضرورياً، لتختلي بنفسها هي الآن في حاجة إلى مراجعة طويلة، بل إعادة هيكلة كاملة لحياتها، ستدرس بتمعن عروض عبد القادر التي فاجأتها، إنها عروض سخية مغرية، لم يقدم لها عباس سوى واحد في المئة مما عرضه عبد القادر، وتذكرت قولاً قرأته أو سمعته في يوم ما يقول:

لو أن اللص لم يسرق ما سرق لكان رزق بأكثر مما سرق بطرق الحلال). ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه إن عبد القادر صادق في عرضه لكنه قد تأخر في ذلك.

أخبرتهما أنها ستغيب عن الساحة أسبوعين لأمر جلل حدث في حياتها وحياة أسرتها .

اشترك عباس مع عبد القادر في الحيرة والقلق. ما سر غيابها؟ مرض أحد إخوتها لا يدعو لهذا الانقلاب المفاجئ، والانقطاع الطويل.

قال عباس معزياً نفسه: ستبدي لك الأيام يا عباس ما خفي عنك علمه،

وما صعب عليك فهمه، وعلى كل حال، قد حصلت منها البارحة على ما حصلت، ونعمت بها ليلة من ليالي العمر المضيئة، ليلة بالتأكيد غير كافية ولكنك ربطتها في تلك الليلة بحبل من مسد سيشدها إلى جهنم، إن حاولت أن تلعب بذيلها).

وكان عبد القادر أقل قلقاً، وأكثر سذاجة من عباس، وقد قال في نفسه: هي بالتأكيد ستغيب على ليزداد الحب اشتعالاً، ولتعطي نفسها الوقت في دراسة العروض التي قدمتها، فهذه العروض لن ترفض إطلاقاً).

١٠

جملة قالها الحاج عبد القادر، كان لها فعل السحر، بل كادت تزلزل الأفكار التي حقنها عباس فيها، وكادت تثبت في عقلها ولا تتزحزح.

ذكرها عبد القادر بوصية أبيها، وهو في نزعه الأخير :

لن أرقد في قبري بسلام، إن لم تسعي للتحضير للدكتوراه ومن ثم تتالينها. وفيما بعد تلتحقين بالهيئة التدريسية في الجامعة).

قال لها عبد القادر:

- لماذا تخليت عن الفكرة، ولم لم تعودي إلى هدفك الأصيل النبيل. على الإنسان ألا ينسى هدفه الأساس في زحمة بحثه عن أدوات عيشه، فلكل إنسان في الحياة رسالة، وعليه أن يسعى لحملها وتحقيقها، لا سيما أنها وصية الأب.

هذه الجمل صدمتها، وأعادت لها الوعي فهي فعلاً قد نسيت هذا الهدف الذي سعت إليه منذ سنين، فما الذي أنساها أمنيتها التي حلمت بها، وقد أوصى بها أبوها قبل موته، وحملها ذلك كرسالة عليها تأديتها؟ كلام الحاج عبد القادر وعروضه السخية لم تؤثر فيها كما تأثرت بشيء عزيز نسيته، لماذا

نسيت ذاك الهدف العظيم الذي طالما حلمت به، وأنساها إياه الشيطان؟ إنه عباس، ربما تأثرت بوعوده وأفكاره البراقة الخلبية، فانساقت كفراشة نحو الضوء. كل تلك دعاها للاعتكاف في بيتها، والتأمل في ما اكتنف حياتها منذ نزلت إلى سوق العمل، متأثرة بآلياته وثقافته وطريقة تفكيره في البداية أعجبت بعباس، بدهائه وأفكاره الجديدة عليها، التي لم تقرأها في كتب فيما مضى، كانت صادقة وتكره الكتب، لأنه أساس الشر، ولكنها من عرفت عباساً، زين لها الشيطان فنون

المراوغة، ونصب الأشراك عاداً ذلك قمة الذكاء والدهاء، وانتهى بها الأمر أخيراً، أن وقعت في الشرك الذي نصبه عباس.

إن عباساً نتيجة تجاربه الماضية مع النساء خاصة، وفهمه نقاط الضعف البشرية عامة، استطاع أن يلوث جزءاً مهماً من تفكيرها، ويحولها إلى حجر في بنائه، وإلى أداة لتنفيذ أهدافه، وانتهى به الأمر أخيراً إلى الاستحواذ عليها بشكل كامل، وامتلاك جسدها لليلة واحدة.

لقد اشتركت معه في الإيقاع بالحاج عبد القادر، مع أن هذا الأخير لم يسى إليها، أو يستغلها بل كان منذ البدء معجباً بها ومشجعاً لها. هي أعطته من طرف اللسان حلاوة لغاية مرسومة، ومثلت الغنج والدلال كما يفعل المحبون، لا من أجل مصلحتها، بل من أجل مصلحة عباس بالدرجة الأولى، وقد رمى لها بعض الفتات.

اليوم يقدم الحاج عبد القادر نصف ثروته لها، على طبق من ذهب لكن الأمور أنت متأخرة، فقد أحرقت سفنها، ولا مجال للعودة إلى الشاطئ الذي انطلقت منه، لأن عباساً خرق السفينة.

في هذه اللحظات، توصلت إلى قناعة شبه كاملة: لا يمكن الجمع بين العلم الأكاديمي والمثالية الأخلاقية من جهة، وبين آليات السوق ودسائسه من جهة أخرى. إن خطأها كان في اعتقادها أنها يمكن أن تجمع ما بين النار والماء، وعرفت بعد تأمل أن مسيرة الحياة ليست بالأمر السهل، ولا بد من بوصلة وميزان، وأن الأهداف النظيفة، يقتضي الوصول إليها وسائل نظيفة، وأن على الإنسان أن يكون ذا عقلية لامعة كالبرق، مشحونة دوماً بالمثل والأخلاق، وإن خسر بسبب ذلك فلبعض الوقت، فالمحصلة العامة ربح أكيد، ويعود إليه ما فاته أضعافاً، وعلى المرء أن يكون ثرياً بمعلوماته عن المحيط، وعن الأشخاص الدين وضعتهم الحياة في طريقه، أو وضع هو في طريقهم.

وجاء ابن خالتها علاء يزورهم، فسألته عن عباس الداعور، وأنها تريد

معلومات واسعة.

- لماذا تجمعين عنه المعلومات؟

- أريد معلومات كافية وافية عنه، لأني سأعمل لديه وأمسك حساباته.

وعدها بذلك، وجاءها بعد يومين بخبر صدمها وزلزل كيانها طلقته زوجته، لأنه عقيم لا ينجب، والرجل ثعلب ماكر همه الإيقاع بالآخرين، عليك الحذر)

تغير لونها وامتقع ولاحظ ابن خالتها تغير ملامحها فقال:

أراك منزعجة بعد سماع الأنباء

- لا، تفاجأت فقط بالخبر، لأنه أخبر صاحب الشركة التي أعمل فيها، أنه هو من طلق امرأته لأنها عاقر.

احذري منه فهو كاذب محائل، وزير نساء، ونصاب، وأنصحك بأن لا تتعاقدي معه بأي عمل.

عرفت، ساعتها، أن عباساً لغم زرع في حياتها، وهو الآن ينفجر، فقررت الا تسلمه نفسها مرة ثانية، وقررت أن تذهب إلى بيته عندما يكون في المتجر الجلب عقد الزواج العرفي مع مجوهراتها وثيابها، كما قررت أيضاً الغياب عن عباس وعن الحاج عبد القادر بذريعة التحضير للدكتوراه، مع

الإيحاء المبهم للحاج عبد القادر، بأنها ستوافق بشكل مبدئي على عرضه، على أن يبقى الأمر سرا، حتى تنال الدكتوراه، وتعين أستاذة في الكلية، وكل ذلك يقتضي مزيداً من الوقت، كما أنها ستتذرع العباس عن غيابها بالأسباب نفسها، وأنه بعد نيلها الدكتوراه، فسيكون لكل حادث حديث، وبهذه الحالة تأمن غدره، وتبقي عرض الحاج عبد القادر تحت الدراسة إلى حين البحث عن مخرج مشرف.

كان فرح الحاج عبد القادر، عظيماً عندما أنبأته، بقبولها المبدئي لعرضه.

انتهى بناء المصانع. يضم البناء مصنع الألبسة القطنية، ومصنع حلج الأقطان ومصنع استخراج زيوت القطن. دعا الحاج عبد القادر الكوادر، من مهندسين وخبراء، إلى اجتماع موسع استهله بما يلي:

- لقد طال العمل في بناء المصانع السنوات، واستغرق وقتاً طويلاً،

وقدرت أموال كان يمكن توفيرها، وأهم من المال الزمن، فهدره لا يعوض، لقد الجرنا في عملية الإنتاج كثيراً وعلينا الآن استيراد آلات التشغيل، بأسرع وقت.

قال عباس:

بدءاً من العد سنبحث عن الشركات التي تصنع الآلات.

قال الخبير الفني رمزي حباحب

المصانع الصينية متوافرة رخيصة الثمن، لكن أعطالها كثيرة، والمصانع الألمانية أو البريطانية غالية الثمن لكنها أكثر إنتاجاً وأقل أعطالاً.

قال الحاج عبد القادر:

- ستستورد أفضل الآلات، ولو كان ذلك بسعر أعلى، ابحث أنت يا عباس مع الخبير رمزي الذي درس في بريطانيا هندسة الميكانيك)، من خلال شبكة

(الإنترنت) عن أفضل المعامل في أحسن الدول.

تعددت لقاءات عباس بالخبير رمزي، وبعد بحث مضن وجد أن أفضل

معامل الغزل والنسيج هي الإنكليزية، وأخبرا الحاج عبد القادر بنتائج الدراسة. وافق الحاج عبد القادر على شراء آلات المعامل من بريطانيا، على أن تركب عنده بوساطة خبراء بريطانيين، يكفلون الإنتاج تحت إشرافهم لشهور ريثما يهيا الكادر الوطني.

قال الحاج عبد القادر :

- جهزا نفسيكما للسفر إلى بريطانيا في أسبوع.

قال عباس:

- ليكن الوقت أطول.

- عشرة أيام فقط.

كان عباس يريد وقتاً إضافياً لبيع متجره، والجمع أمواله من السوق لإخراجها تحت غطاء أموال شراء المصنع، الذي رخص رسمياً، وهو بموجب

ذلك يستطيع إخراج مبالغ طائلة بحجة شراء ذلك المصنع، والقانون السوري يمنع إخراج العملة الصعبة من البلاد، إلا لأسباب مسوغة، وقد باع عباس المتجر بأضعاف ما اشتراه من الحاج عبد القادر عن طريق نور الصباح، وجمع كل ما يملك وحوله إلى عملة صعبة، خلطها مع أموال المصنع وتحولت إلى فرع في مصرف بريطاني.

قال له عبد القادر :

- لقد أوليتك ثقة كاملة مطلقة فكن عند حسن الظن.

سأكون كذلك، ولن يصرف دولار واحد في غير ما يجب أن يصرف.

أقلعت الطائرة من مطار دمشق تقل عباساً والمدير الفني رمزي، وقد

سبقتهما النقود إلى مصرف بريطاني، ولما كانت الغيوم تحت الطائرة المتجهة

إلى لندن قال في نفسه:

الآن أفر بمالي إلى بلد يحفظ النقود بمأمن وتتكاثر فيه الأموال، دولة

لا تسأل عن مصدرها، وتسهل دخولها وخروجها.

وصلا إلى لندن واستقلا سيارة أجرة إلى العاصمة، فنزلا في فندق التايمز وكان الخبير رمزي يتقن الإنكليزية بطلاقة، وكان له فيها أصدقاء سوريون

تجلسوا وأسسوا أعمالاً في عدة مدن إنكليزية.

كان الفندق فخماً، وله إطلالة على نهر التايمز). جلس عباس في شرفة الفندق وقد لاحت من بعيد ساعة (بيع بن الشهيرة، وشاهد على النهر جسراً عتيقاً له قناطر عالية تمر من تحته زوارق شراعية، شاركه الجلسة المهندس

رمزي، واتفقا في البداية على التعرف إلى الأصدقاء القدامى الذين يعيشون في هذه العاصمة للاستنارة بإرشاداتهم، ومر أسبوع التقى فيه عباس ورمزي العديد من أفراد الجالية السورية المقيمة هناك، وقد أعجب عباس بصديق رمزي القديم على الصيرفي، وهو رجل في الأربعين من عمره، ثعلبي الوجه، حاد النظرات قدم إلى بريطانيا بقصد الدراسة، وفشل في دراسته فاتجه إلى أعمال السمسرة والصرافة. كان يلتقي بالمسافرين الجدد يلتقطهم من المطار، يسهل لهم سبل الإقامة، واحيانا ينصب ويحتال، وأحياناً أخرى يستفيد من الصرافة، وفرق العملة.

اعجب به عباس ووجد أرضية في الفكر والعقل تجمعهما، فصار يسهر مع على الصيرفي، وحده، ويترك رمزي في الفندق.

مرة قال عباس لعلي الصيرفي:

علي، أنت ذكي فلماذا لا نتشارك في عمل مريح؟

وما هذا العمل المربح؟

عندك غرفتان في وسط لندن تنام في إحداهما وتستعمل الأخرى مكتباً لأعمالك وهي أعمال عرضية غير دائمة - كما أظن - موردك غير ثابت وحياتك قلقة تخضع للظروف. بإمكاني جعل مكتبك مركز توزيع بضاعة شركتنا من الألبسة القطنية، لقاء عمولة ونسبة من البيع.

- هذا عمل مفيد لي، ولكن ماذا تقطف أنت من هذه الخدمة؟

- نصف العمولة تضعها في حسابي الذي افتتحته في بنك لندن.

- موافق.

وتوالت اللقاءات والسهرات فقال له على الصيرفي في إحدى سهراتهما :

- الأعمال الإنتاجية كثيرة التكاليف وتخضع للضرائب، وأحياناً للخسارة

لماذا لا تبحث، يا عباس، عن عمل سهل فاحش الربح من دون تكاليف، وبعيداً عن أعين الناس؟

- ما هذا العمل ؟

- تزوير العملة، وبإمكاني تزويدك بآلة لتزييف الدولار، يصعب كشفها

إلا بآلات دقيقة لا تتوافر إلا في المختبرات.

من الصعوبة إدخال مثل هذه الآلات إلى سورية.

- لا شيء يصعب إنجازه، أنا أؤمن لك إدخالها، وأدربك على فك قطعها وإعادة تركيبها، يكلفك كل ذلك مليون دولار ثمناً للآلة والتدرب عليها وللفكرة ذات القيمة التي لا تقدر بثمن.

لقد جاء من هو أعلى منك مرتبة وخبرة فى الشر يا عباس يستخدم (التكنولوجيا) في احتياله وخداعه. ويبدو أن للنصب والاحتيال فنوناً ومراتب، وقد جاء إلى السارق من يسرقه.

قال عباس:

- قبل أي شيء، كيف يمكن لي إدخالها إلى سورية، السلطات يقظة وحذرة.

- إدخالها سهل، ستفك إلى أربع أو خمس قطع وترسل إلى عدة أشخاص يلوذون بك، على أنها قطع تبديل لآلات طابعة، وذلك على فترات زمنية متباعدة كي لا تستطيع السلطة الربط بين الأحداث والوقائع.

- هذه فكرة شيطانية ولكن ثمنها باهظ.

- لقد أرشدتك إلى فكرة تساوي المليارات، وأنت حر في القبول أو صرف النظر.

- لماذا لا تنفذ أنت الفكرة هنا وتزور الجنيه؟

هنا آلات الكشف سريعة، والناس يتعاملون عن طريق المصارف، أما عندكم فيكدس الناس ثرواتهم في صناديق أو يطمرونها تحت البلاط، وبما أن التعامل بالدولار عندكم ممنوع، فلا يستطيع

الأشخاص الموسرون وضع دولاراتهم في المصارف، بل يحتفظون بها في بيوتهم في أماكن سرية، وبذلك تكون بمنأى عن الكشف.

هذا كلام صحيح، ولكن ماذا لو كشف الأمر ؟

لن تبقى طوال العمر تزيف النقود بل تضرب ضربتك بمئات الملايين وتحولها إلى عملة صحيحة فتصبح من أرباب المليارات تقر بعدها إلى بلد أوروبي، وتعيش عيشة الملوك.

بقي عباس يفكر في العرض، وعبثت الأحلام بخياله، فتخيل نفسه ملكاً من ملوك الحديد أو القطن أو حتى الذهب، وتراخى في البحث عن آلات المصنع

الذي جاء من أجله حتى إن الخبير رمزي قال له :

- لماذا نتأخر في البحث وشراء الآلات، نحن جئنا للعمل لا للسياحة؟

- تراخينا هو المصلحة الشركة التي جننا من أجلها، وستكون لدينا الخبرة الكافية عندما تتعاقد على شراء الآلات، فلا تكن في عجلة من أمرك.

وافق عباس على شراء آلة التزوير وتورط في لعبة أكبر منه، وليس له فيها دراية أو خبرة. هو يعرف آليات السوق، وكيف يتعامل مع البضائع المغشوشة، ويبيعها على أنها بضائع راقية. يعرف كيف تباع البضائع المهربة، وكيف تغطى بالفواتير المزورة، لكن أن يصبح رئيس عصابة لتزوير الدولار، فهذه قفزة نوعية خطرة وقاتلة، ما كانت لتخطر له على بال، لكنه جازف وأقدم وصار في مكتب على الصيرفي يتدرب على الآلة فكأ وتركيباً، ولما عمل أول عملية تزوير على أوراق الدولار، بحضور علي الصيرفي الذي أصبح معلمه، دهش عندما وجد أن الدولار المزيف الذي تنتجه الآلة، يشبه تماماً ورقة الدولار الحقيقي، ولا يستطيع سوى الخبير الدقيق كشف الفروق.

- ما رأيك أن أزيف هنا مليون دولار، وأحملها في حقيبة وأدخلها إلى سورية؟

ضحك على الصيرفي لسذاجته وجشعه فقال له :

- إذا أردت أن تدخل السجن قبل أن تشاهد أهلك ومدير شركتك فافعل ذلك، ما هكذا تورد الإبل يا سعد عليك أن تنقذ الطباعة والتزوير في بيت لا يدخله غيرك، وأن تنقطع عن العالم كله أسابيع مديدة، حتى تجمع ملياراً أو مليارين، أو ربما أكثر من الدولارات المزيفة عندها تخفي الآلة أو تحرقها ثم تنشئ عصابة لترويج الدولار المزيف.

- تقول عصابة؟ هل تريدني أن أصبح في آخر أيامي رئيس عصابة؟ - لم أقصد هذا؛ أقصد مجموعة عمل لترويج تلك العملة وتبديلها، وعلى كل فرد في المجموعة، ألا يعرف زميله إلا عند الضرورة، وأن يجري الترويج في كل المدن في فترة وجيزة، بعد ذلك تهرب بالعملة الصحيحة إلى لبنان، ومنه إلى الخارج.

أدرك عباس خطورة ما أقدم عليه، ولكن جشعه كان أقوى من خوفه، فاصر على إتقان الطباعة، وزاد من طرح الأسئلة على الصيرفي ليعرف الخفايا والخبايا.

قال لعلي الصيرفي

متى ترسل قطع الآلة إلى سورية؟

- ارسلها بعد أن تنهي عملك في لندن وتشتري آلات المصنع.

عند ذلك تفرغ لشراء آلات المصنع، وكثف مع الخبير جولاته وجهوده، فعثر في مدينة بورك شاير) على مصنع غزل وحياكة وتفصيل الألبسة القطنية الداخلية، هذه بغيته وهذا ما يبحث عنه، واتصل بعلي الصيرفي فحضر على الفور وعاين معهما الآلات.

قال العباس:

- اعتقد أن هذه الآلات هي أفضل ما أنتجته بريطانيا، على مستوى حياكة القطن وتصنيعه حتى الآن.

بدأ البازار مع الشركة المنتجة، واشترك على الصيرفي في المداولات

وكان من جملة الشروط سفر خمسة خبراء اختصاصيين في تركيب المعمل وإدارته إلى سورية، ووافقت الشركة، وحصل بمساعدة من علي الصيرفي على عمولة قدرها عشرة في المئة، أعطى منها ثلاثة في المئة لعلي الصيرفي واحتفظ بالباقي، وحصل ذلك بعد إبعاد الخبير رمزي، بحجة فحص الآلات، تم الاتفاق وتوقيع العقد، وعد عباس أن مهمته قد أنجزت.

من جهة ثانية، فإن الحاج عبد القادر عقب مغادرة عباس وجد نفسه وحيداً غير قادر على إدارة الشركة، فدعا ابنه الدكتور سليمان إلى مكتب الشركة وطلب منه المساعدة ودراسة الوثائق

قال سليمان:

- هذه الأمور تحتاج إلى خبير محلك ذي ثقة وليس لنا إلا الدكتور عبد الرؤوف.

أنجده الدكتور عبد الرؤوف بخبير مجرب له باع طويل في المحاسبة والإدارة، بقي أسبوعاً يمحص ويدرس ويدقق، ثم أصدر تقريراً، ملخصه

الكادر الإداري للشركة غير . كفء، أو ربما متواطئ الحسابات فيها تلاعب كميات المواد مبالغ في تقدير قيمتها، وفيها زيادة غير طبيعية).

أدرك الحاج عبد القادر أن وراء الأكمة ما وراءها، وأنه أخطأ يوم عرض عليه ابنه سليمان المساعدة، فلم يقبل، فقال لابنه:

- ما الرأي عندك، وما العمل الآن؟

علينا إعادة هيكلة الشركة وتغيير جميع كوادرها، وأظن أن عباساً عنده

كلمة السر.

طلب الدكتور سليمان من عبد الرؤوف أن يمده بكادر خبير، وذي ثقة والمائة وأخلاق، واضطر إلى أن يداوم مع أبيه في الشركة فترة ما بعد الظهر.

قال له أبوه:

- لماذا لا تنضم إلى شركتنا، وتكون نائباً لي؟ علينا إخراج عباس مستقبلاً من الشركة لأن الشك يحوم حوله.

قال سليمان:

- اعتقد أن عباساً متأمر مع الكوادر التي اختارها، وأن الزمن الطويل الذي استغرقه قرينة على أنه يستجر المال من الصرفيات لصالحه، وعلى كل حال، خبرته في إدارة الشركات ضعيفة، أفكر في الانضمام كشريك، وإلا ستضيع الشركة كما ضاع المتجر.

انزعج الحاج عبد القادر من تقريع ابنه له، ولكنها كلمة حق تقال، والحق أحياناً قاس جارح فتقبل الأمر، ثم قال لابنه:

علمتني الأحداث مؤخراً الا أثق إلا بالخبير الناصح، وأن أحتاط، فالاحتياط واجب وألا أخلط الصداقة بالعمل، وأن أميز بين الكفاءات، وأختار

الأفضل، وفي هذه الحالة لا بد لي من طلب مساعدتك وعونك.

في أثناء غياب عباس، ذهبت نور الصباح إلى البيت، وأخذت صك الزواج العرفي، ووضعته في حقيبتها، ثم جمعت حليها ومجوهراتها وألبستها في حقيبة كبيرة، وعادت إلى بيتها، وفور وصولها تلقت مخابرة من الحاج عبد القادر، أنبأها بأنه غير كوادر الشركة فثمنت تصرفه الذكي.

وقالت :

- خيراً فعلت يا عبد القادر، فعباس غير جدير بالثقة هو وكادره.

قال لها عبد القادر :

- ثابري في الإعداد والتحضير للدكتوراه ليس مطلوب منك الآن أي عمل للشركة، برغم أنني قد اشتقت إليك إلى درجة لا يمكن وصفها، ولكن مستقبلك أهم عندي من رغباتي.

قالت:

- لما تصل آلات المعمل إلى طرطوس، أخبرني رجاء لأقوم بتخليصها

وشحنها إلى دمشق.

في لندن أنجز عباس شحن الآلات بالبواخر، واستعد الخبراء للسفر إلى دمشق، ولما كان عباس، ومعه المدير الفني على أرض المطار، كان علي الصيرفي يودعهما بحرارة مقبلاً عباساً الذي همس في أذنه: (لا تنس إرسال الأمانة إلى سورية على دفعات والأسماء عندك مع العناوين).

في غضون ساعات وصلت الطائرة مطار دمشق. كان عباس يفكر في الخطوة القادمة، ودخل بيته فوجد أن نور الصباح قد أخذت أشياءها وصكها العرفي فأدرك أن الطيور قد غادرت أعشاشها. لم يحزن كثيراً لأنه سيجعل من هذا البيت وكراً سرياً للطبع والتزوير، ومن الأفضل ألا يدخله أحد أبداً، حتى نور الصباح نفسها، وقد جاءت المبادرة منها فهنيئاً لك قرارك أيتها القطة البائسة. في اليوم التالي، ذهب إلى مقر الشركة فوجد وجوهاً جديدة، فسأل أول

موظف صادفه.

- أين موظفو الشركة، وماذا يعمل هؤلاء هنا؟

- لقد تغير الموظفون كلهم، وجيء بطاقم جديد للشركة.

دخل عباس مكتب الحاج عبد القادر مسلماً عليه بحرارة، فرد عليه بفتور، زوجة ابنه سليمان في المكتب فسلم عليه فلم يقم سليمان له بل اكتفى بإعطائه يده المصافحة بائسة، دون أن ينظر سليمان في وجهه، فأدرك عباس على الفور

ان زلزالاً ما قد حدث في غيابه.

بعد هديهة من الوجوم سأل:

أرى وجوهاً جديدة في الشركة.

قال الحاج عبد القادر:

- لقد أخذنا قراراً بتغيير الكادر القديم واستبداله بآخر، أكثر خبرة وثقة وعلماً.

لم ينبس عباس بكلمة لكنه قال في نفسه:

ستكون عندي آلة الطبع الجهنمية، التي استغنى بها عن كل شركات العالم، فغير يا عبد القادر ما شاء لك التغيير، غير حتى تشبع، فلم تعد شركتك

تعنيني، وسيأتي المال الصعب دون صعوبة، فاتعب أنت ما شاء لك التعب).

وأخبرهم أن الآلات ستصل بعد أيام إلى مرفأ طرطوس، وتحتاج للتخليص الجمركي والشحن.

قال الحاج عبد القادر:

- ستكون هناك نور الصباح والدكتور سليمان.

قال في نفسه:

هل خانت نور الصباح الأسرار ؟ فتورها حين كلمتها بعد عودتي ينبئ بذلك وإذا كانت قد خانت والتحقت بعبد القادر، فهنيئاً لها ذلك العاجز الضحل

المغلوب على أمره).

وقطع عليه تأمله الداخلي قول سليمان:

- المطلوب منك يا عباس، تفقد البنية التحتية للمعمل، وانتظر التعليمات.

- سأفعل.

يتحول عباس الآن إلى بيدق وتنزع منه الأظافر والأسنان.

وصلت الآلات إلى طرطوس، وذهبت نور الصباح مع الدكتور سليمان لتنفيذ الإجراءات وشحنت إلى دمشق. في هذا الوقت، وصل الخبراء الإنكليز إلى المطار، واستقبلهم المدير الإداري الجديد فأنزلهم في (الشيراتون).

فى الأيام التالية، جرى تركيب آلات المعمل، واشترى القطن المحلوج

بكميات وفيرة.

أسبوع واحد كان كافياً لتدور بعده آلات المصنع، وتحول القطن إلى غزل، ثم إلى نسيج ناعم، ثم إلى ألبسة قطنية داخلية ملفوفة بورق (السولفان) وعليه شعار الشركة.

كان سليمان قد أنشأ مكتباً جديداً في الشركة للترويج والبيع، وامتص السوق المحلي وكذلك الإقليمي بضائع الشركة بشراهة.

قال عباس:

- لقد افتتحت مكتباً في لندن لتصريف البضائع، وبيعها في الأسواق الأوروبية.

قال سليمان:

- لا داعي لذلك، فشركتنا فيها قسم الترويج والتصريف، تتعاقد مباشرة

مع المتاجر الأوروبية الضخمة، فالغ مكتبك في لندن.

أصابه قنوط ويأس وإحباط، وخاف إن لم يرسل لعلي الصيرفي بضائع الشركة أن يتأخر هذا في إرساله المطبعة، فاتصل به وقال:

الرجاء إرسال الأمانة

- لقد أرسلت لك الأقسام كلها، أيام وتكون عندك.

وفي أثناء عملية الإنتاج جرى توظيف بعض العمال في الأقسام العديدة للمصنع، وتصادف أن كان العامل الجديد محمود نوري، يجمع القمصان فانحرفت يده نحو الآلة، فأخذت أصابعه الثلاث فصرخ....

اجتمع العمال، وحملوه إلى الإسعاف، ومن هناك إلى المستشفى، وزاره الحاج عبد القادر هناك، وأعطاه مالاً، وقدم له باقة ورد.

بعد شهر فوجئ بمحضر القصر العدلي، يبلغه دعوى أقامها العامل محمود نوري عليه أمام المحكمة العمالية، ويتوجب عليه الحضور يوم الاثنين القائم، وأخبر محاميه الجديد، وذهب يوم الاثنين معه إلى قاعة المحكمة.

قال القاضي مشيراً إلى محامية تلبس رداء المحاماة

- استاذة سميرة درويش تقدمي الإلقاء مرافعتك.

قالت:

- سيدي القاضي إن أرباب العمل يعتقدون أن العمال خلقوا ليعاملوهم خدماً، فاستغلوهم أبشع استغلال فامتصوا دمهم، وسفحوا عرقهم، ولم ينالوا إلا احتقارهم. أعطوهم قليلاً من المال يقيم أودهم لاستمرار عملية الإنتاج، يعيشون على الكفاف، وعندهم أولاد ومسؤوليات، ولولا هؤلاء العمال لما تكدست الثروات في جيوبهم، وإنني أطلب من المحكمة الكريمة أن يخصص راتب شهري لموكلي العامل محمود نوري، لأنه فقد أصابعه الثلاث في أثناء عمله في شركة عبد القادر المكاثر، وأصابع موكلي التي تترت، لا يعوضها مال مهما كثر.

نظر إليها عبد القادر، وتفحصها ملياً، كانت سميرة درويش نفسها، التي عملت في مطبخه وألبها وطردها، لأنها لم تدعه ينالها، وقد تذرع يومها بأنها طمعت في ثروته، قال في نفسه

يا السخرية الأقدار ! بل يا لقدرة الإنسان على صنع المعجزات كم كنت وضيعاً تافهاً يوم أهنتك يا سميرة، وكان على أن أقدر شهامتك يومها).

قال القاضي : ليتقدم محامي الشركة ويدلي بمرافعته.

قال محامي الحاج عبد القادر :

إن العامل محمود نوري قد بترت أصابعه بخطأ منه، فليست مهمته تشغيل الآلات بل مهمته جمع الإنتاج بحرص، وبعيداً عن الآلات القاطعة، وهو بفعل

فضوله أو استهتاره أو شروده، فعل ما فعل بنفسه فهو لا يستحق أي تعويض.

هنا رفع الحاج عبد القادر يده، وطلب الكلام فأذن له القاضي فقال:

إن من حق العامل أن يطلب تعويضاً، وهذه الأصابع الثلاث، لا تقدر بثمن كما قالت المحامية سميرة درويش، ومهما دفعت له لا أعطيه حقه، لأن حقه أن أعبد له أصابعه، وهذا مستحيل. إنني أوافق المحامية سميرة درويش على ما جاء في مطالعتها، وأنا أقر أمامكم بأنني مستعد أن أخصص له راتباً من الشركة مدى الحياة.

تهلل وجه القاضي وقال للحاج عبد القادر :

- إنك تستحق التصفيق، وليت كل من أخطأ اعترف بخطئه واعتذر، مثلما فعلت، لقد كانت كلماتك يا عبد القادر، أعظم وأروع مرافعة سمعتها في حياتي، لأنها تحمل الصدق والأمانة والصدق أبلغ من الكتب، كما أن الحق هازم الباطل، وبالمحصلة أقول: كلنا عيال الله وأقربنا إلى الله أنفعنا لعياله... شكراً لك يا عبد القادر، وحبذا لو حذا الجميع حذوك، لما كان هناك صراع بين غني وفقير. حسمت القضية بتخصيص راتب شهري للمصاب نوري مدى حياته.

لما خرج من قاعة المحكمة، التقى سميرة درويش، التي هرولت إليه مصافحة وشدت على يديه وقالت له:

- لم تتغير يا حاج عبد القادر، فقلبك الطيب البريء كما عهدته.

- أعتذر منك يا سميرة بالنيابة عن قلبي لأنه في لحظة ما سبب لك الأم

من دون سبب... كنت على حق، وكنت أنا على باطل، فليغفر لنا الله أخطاءنا. بل الأجدر بي أن أشكرك، ففي دارتك جاء مهندس الحاسوب يمان

الآغا ليلقي في قلبي البشارة، ولقد هيأ لي القدر أمثالك فساعدوني، وأما كلماتك القاسية التي صدرت ربما بدافع الحب فكانت بالنسبة لي دافعاً للتغيير والارتقاء فليس مثل الألم ما يدفع لإظهار الإرادة والمثابرة والإصرار ... سأتخرج بعد يومين وأنال لقب الأستاذية، وسيكون لي مكتبي الخاص وأتوقع زيارتك.

إن هذا يشرفني، فبأمثالك ينهض الأفراد وترتقي الأمم.

١١

بعض الناس يتفكرون، قبل أن يأووا ليلا إلى أسرتهم، في أحداث يومهم الذي انصرم لتوهم أحياناً، ينقدون تصرفاتهم، وأحياناً يثمنون أعمالهم الناجحة. والخلاصة أنهم يفرزون الماس عن التنك والغناء، ويتعلمون من الحياة دروساً شتونها في عقولهم قواعد حياتية، للعمل بها وعلى ضوئها في المستقبل، وبعضهم يستسلم لتداعيات الماضي، حتى يصل طفولته، واليوم تمدد عبد القادر في سريره متذكراً ماضيه، وتوصيات أبيه.

احفظ المال بعد جمعه بشتى السبل ولو من البخل أو الحرام المسوغ). كان أبوه سليمان يسوغ الربا، ملبساً إياه رداء البيع، حيلة ابتدعها للهروب من إثم الربا، محققاً ربحاً ربوياً فاحشاً من وراء ذلك، وتذكر أيضاً كيف شبه له المال بعصا موسى السحرية، أو سلطان داود غير المحدود. لكنه وجد أن هذه الفكرة الغبية التي ابتدعها أبوه عندما ألبس الربا ثوب البيع، كانت كمن يزيد الطين بلة، والإثم فسوقاً وفجوراً. إنه خلق مالاً حراماً، محق كثيراً منه، ولم يتم كما يجب، فالمال الذي كدسه الحاج عبد القادر إبان عقود لم يقدم له السعادة ولا النماء، بل بالعكس تماماً أورثه الملل والضجر والكآبة، حتى كره نفسه وكاد ينتحر، والطبيب النفسي لم ينقذه بل أعطاه توجيهات عامة قابلة للتأويل، مع قليل من المخدر عند اللزوم، وفي الزاوية الصوفية ضاع في الألغاز، وعاد بخفي حنين، فالحياة لا تحتاج إلى تصوف، بل إلى اختراق، إنها تؤخذ عنوة وغلاباً، ولكن تحت مظلة الأخلاق والأعمال الخارقة تحتاج الخبرات. عندما تولى ابنه إدارة الشركة، مستعيداً بخبرة الدكتور عبد الرؤوف، وعناصر مكتبه، نهض الإنتاج وتحقق الربح الهائل الذي عوضه عن كل سقطاته، فما

الذي تغير ؟

لا بد أن المال يأخذ شكل الأواني المستطرقة، ويخضع لمن يديره بحكمة وذكاء وعلم وخبرة فيكون له خير وسيلة، وإن المال الحامد المخبأ، مثل قيل (الماموث) الذي وجد بلحمه وعظمه كما هو منذ خمسة آلاف عام مغموراً بثلوج سيبيريا.

كان يسوغ قلة حيلته وفقر إنسانيته بعدم خبرته، ويحمل أباه وزر ذلك، ولكن هل من الضروري أن يكون صاحب الشركة موسوعياً، خبيراً وفنياً وضليعاً في إدارة الناس حتى تنجح الشركة وتعطي أكلها؟ إن أناساً في بلاد الخليج والنفط مثله، لا يملكون خبرة شمولية، ولا ثقافة بل ملكوا مالاً، لكنهم شيدوا الأبراج التي لا مثيل لها في أرقى البلاد، وأنشأوا الشركات القابضة، وربحوا الأموال الهائلة، لكنهم وقعوا أيضاً في خطأ لم يكشف لهم عنه الحجاب ربما إلى الآن، ذلك أن علة تلك الشركات هناك، أنها كانت أداة تسويق المنتجات الغرب فهي بمنزلة الوكيل لشركات عالمية أكبر، وعمالتها أيضاً أجنبية وافدة، وفي أحسن الأحوال عربية، فخسر المال والاقتصاد صفته الاجتماعية، وظل غريب الوجه واليد واللسان.

أما مصنعه على قلة رأسماله بالنسبة لتلك الشركات، فقد عكس تلك المقولة وغير النظرية، لقد أصبح يصدر إلى الشرق والغرب القطن السوري المنسوج بأحسن المواصفات، وبخبرة سورية، إن هذا هو التغيير الحقيقي لمسيرة عبد القادر ولماله.

في تلك الساعة من الليل أيضاً، وفي التوقيت نفسه تقريباً، كانت المحامية الأستاذة سميرة درويش قد لبست منامتها وانزلقت تحت اللحاف، وهي أيضاً تستدعي أياماً مضت من حياتها، تذكر أستاذاً فاضلاً علمها، ومخدوماً ثرياً جرحها وألمها قبله هو حاج موسر ، لم يستطع لجم رغباته الجامحة، أحبته لكنه طردها لأنها لم تسلم له نفسها.

وتذكرت سنوات من التعب والكد، مرت في حياتها فيما بعد، كانت سنوات مضنية لكنها سعيدة، فتعلمت فيها ما لم تكن تعلم. تذكر رجلاً حقيقياً اتخذ خطأ في حياته، لم يحد عنه برغم كل المغريات، هو خط الدفاع عن المظلومين والمقهورين وأصحاب الحقوق، إنه أستاذها الذي لم يدافع عن صاحب شركة ظالم ضد عامل مظلوم، ولا رافع عن قاتل ضد ورثة الضحية، بل دافع عن

الحق أينما كان.

تذكر أنه قال لها يوماً :

ابنتي سميرة، قيمة الإنسان بموقفه وعقيدته، قيمة الإنسان بموقف عز وتسام عن الصغائر ومنع الحياة الرخيصة، ما أتفه أفكار صغار الرجال الذين يعدون جمع المال هدفا يكنسونه رزماً وما أتفه أفكار صغار الرجال الذين يبيعون ضمائرهم من أجل المال أو من أجل ليالي المتعة الرخيصة. الإنسان الحقيقي هو من يتحمل الألم ولا يكفر بالحياة، لأن الألم مصنع العظمة، ما كان الفحم ليصبح ماساً لولا الضغط الهائل والحرارة العظيمة، وما كان الحديد ليصبح فولاداً، لو لم يسق بالنار، ويعمد بالماء علينا أن تؤمن بالحب، فبالحب وحده تمارس إنسانيتنا الحقة الإنسان الحقيقي هو من يقف إلى جانب المظلوم، ويعين المنكوب ويسد رمقه وأنت يا سميرة إنسان حقيقي لأنك حملت الآلام، وفي نهاية المطاف تغلبت على المصاعب واحتفظت بالمثل والشرف والنبل.

يومها ظنته (طوباوياً) حالماً.

فقالت له :

- هل (الطوباوية تحل مشكلات العالم؟

تبسم ضاحكاً من قولها وأجاب:

إن مشكلات العالم لن تحل. فنحن في الأرض، ولسنا في السماء وصفحات السعادة والرفاهية في تاريخ البشرية هي الصفحات البيضاء، وعالم خال من المشكلات هو عالم الملائكة، وما دامت الحياة قائمة على الأرض، فستكون هناك مشكلات علينا عبء حلها بالحب والعدل، أما النظريات على اختلافها وأنواعها، فقد تحل مشكلة ما في بلد ما، وفي حقبة معينة، لم ما يلبث الزمن أن يتغير مغيراً الناس وأفكارهم وعاداتهم، فتندثر النظرية، وتفقد فاعليتها، وعلى الإنسان فى هذه الحالة البحث عن نظرية جديدة تخدم الواقع والإنسان. ولكن هناك من القيم ما هو ثابت لا يتغير بفعل الأزمان كالصدق والأمانة والوفاء.

وصلت التداعيات ثانية بسميرة درويش، إلى الحاج عبد القادر، ربما على سبيل المقارنة، مع شخصية أستاذها، قالت:

القد فهم الحب بأنه مرادف للجنس، بل فهم أن الحب هو الجنس).

فكرة «كل شيء له مقابل مترسخة في وعيه، وفي اللاشعور عنده فتركته، في وقت كانت في أمس الحاجة إلى المال، ثم علمت أنه ندم على فعلته فيما بعد، كما أعلمتها أختها فسامحته، غفرت له عندما رافع في المحكمة

منحازاً إلى موكلها المصاب.

فقالت في نفسها :

برغم أنه نشأ ثرياً، يكره الفقراء ويتعالى عليهم، وقد عيرها عندما طردها بأنها طليقة (دباح البقر)، وقد عذرته لأنه برمج منذ صغره على ذلك، وحرم من طفولته وخيالات مراهقته والتفت إليها متأخراً، وأراد ممارسة صباه، بمفاصل يابسة وعظام هشة، إلا أن في داخله بذوراً طيبة مضمرة، تنتظر الانطلاق من قمقمها، فمن أين له أن يحظى بمن يشعل شموعه المطفأة؟ أين تلك الأنثى الاستثنائية التي يمكن أن تقوم بذلك؟ في موسم الحصاد يجنى القمح ولكن الحاج عبد القادر يريد أن يزرع القمح في موسم الحصاد، لا بد أن يعطي كل وقت حكمه ومتطلباته، وعبد القادر يريد أن يقطف عنباً طازجاً في الشتاء، إنه يمر في حالة حرجة، وأخاف عليه من صدمة قاسية.

ثم غلبها النوم فراحت تغط في سبات عميق.

في تلك الليلة أيضاً، وفي الوقت نفسه تقريباً، كان إخوة نور الصباح قد ناموا، فانساقت مع أفكارها، ومراجعة حياتها، كانت تدهش من نفسها، وتحتقر

ذاتها عندما انساقت مع عباس في الاعيبه، وفقدت براءتها، إنها المتفقة المتعلمة التي ربيت على المبادئ، وأبوها وأمها وأهلها كلهم ذوو خلق قويم، فأي جينات ومورثات دفعتها لتنغمس في لعبة المال والاحتيال، وإلى النصب المغلف بصورة الدهاء والذكاء؟ ربما دفعها إلى ذلك جشع مضمر، أو خوف من الزمن مستتر لكنها استيقظت عند حافة الهاوية، قبل أن تنهار تماماً ونهائياً، وبمبادرة من عبد القادر نفسه، الذي ذكرها بنقطة قوتها التي أهملتها، وأن عليها العودة إلى السلك الأكاديمي، فهو الهدف الحقيقي.

بعض الأحيان، كانت تراه سادجاً وغراً، أو (دقة قديمة)، لا يعرف كيف يعامل النساء، أو يملك مفاتيحها، كما يفعل عباس. ربما كان لقلة خبرة أو الدجاجة تصرف، أو السقوط كامل أمام جمال طاغ لامرأة، ولكنه قد انقلب جلاداً مع سميرة درويش مديرة منزله، هل لأنها فقيرة معدمة، لا تملك مالاً ولا جاهاً، أو أنه كان يريد المتعة ولو على حساب شرفها شيء مقابل شيء. إنه على العموم رجل طيب، وقليل من أبناء طبقته من يكون مثله، فمعظم أبناء تلك الطبقة يفكرون بطريقة خاصة تجاه غيرهم، إما غالب وإما مغلوب، إما رابح وإما خاسر، وبالمحصلة إما غنى وإما فقير، وإذا من الله على إنسان بالغنى وفق تلك النماذج فعليه أن يضحي بكل شيء، ليبقى ضمن طبقته، وإلا فسينحدر إلى القاع، مشيعاً بضحكات الشامتين والمستهزئين.

وأما خطيئتها مع عباس، فالتمست لها تسويغاً، بأن كل إنسان يخطئ:

) ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر) وبما أن القدر أفقدها مرجعتيها الصالحة، بموت أبيها، وغشي بصرها دخان أعماها، وقد أطلقه عباس وفق خطة شريرة ماكرة، فتوهمت أن عباساً هو مرجعتيها الجديدة، ومن هناك جزت إلى الخطيئة بصك من شيخ مزور، كان عليها أن تتعلم عن طريق التجربة والخطأ، وفي هذه الحالة يكون ثمن التعلم باهظاً جداً. لقد كرهت عباساً واحتقرته فيما بعد، بعد صحوة متأخرة، واشمازت من تعاليه قائلة في نفسها :

إنه يبحث عن نقاط ضعف الآخرين ليتسرب منها طاعناً إياهم بخنجر غدر، ونسي في الوقت نفسه أن له نقاط ضعف هو الآخر، كان من الواجب عليه أن يتلافاها عن طريق تقويتها، أو أن يتجاوزها بنقاط قوة تحميها، هو لا يعلم أن عقدة ضعفه المال والجشع، إنه عطش ولن يروى مهما ملك أو تملك، كمن يشرب من ماء البحر. كما أن عقدة نقصه متأتية من عدم الإنجاب لأنه عقيم فهو شجرة يابسة اجتثت ما لها من قرار همه وهدفه تراكم الثروة ولو بطرق خبيثة، أقلها سرقة مال الأصدقاء الذين انتمنوه، لكنه فوق ذلك يعزو أعماله الشريرة إلى دهاء وذكاء فيه، ولم يتحرك ضميره يوماً، بل ظل نائماً، وسيأتي اليوم الذي يدفع فيه الثمن.

عباس في هذه اللحظات من الليل كان يسهر ويقول في نفسه:

في أي غرفة أضع آلة التزوير ؟ وما الطريقة المثلى لتمويهها وإخفائها حتى لا تكتشف؟ وكم يتوجب على أن أعمل من ساعات الليل ومن ساعات النهار ؟ وأين أحفظ المال المطبوع وأين أخبئه ؟ وكم يلزم من الوقت لطبع مليار من الدولارات المزيفة؟ متى سأشكل عصبة الترويج، وأين أجد الأشخاص الثقاة الذين ساركن إليهم؟ وبانتظار اللحظة الأخيرة التي سأنجو فيها، كم يلزمني من الحذر والفطنة لأكون البارع الذي نجا، والثري الذي أبهر بذكائه العالم؟

أنا عقيم نعم عقيم ولماذا ينجب الناس؟ أليس من أجل أن يمدهم الأبناء في كبرهم بالمال، أنا عندي المال، فلا حاجة لي إلى الولدا بالمال سيحوطني الأطباء بزياراتهم، يطلبون الرضا لأنني سأدفع لهم، ومن حولي أفضل الممرضات وأجملهن، يلتمسن راحتي، ويشرفن على صحتي. فلأطبع الآن

ما وسعني الطبع ولأجمع من الآلة ما وسعني الجمع، وبعد ذلك يبدأ دور التوزيع على أوسع نطاق، فلأغب عن الناس شهوراً، فهذه الآلة اختصرت الأهداف، وهي أم الثروات. ولعلها أم المعارك.

بعد أسابيع ابتدأ عباس العمل بداب وصبر، وكلما خرجت ورقة من فئة المئة دولار كان يفرح ويضحك بشكل هستيري وكان مساً أصابه فيصيح:

- هذا هو النبع، إنني أملك النبع! أنا ملك الدولار .

مرت الأيام وكدس المال في رزم، وجد أن المكان الأمن في غرفة قريبة من المطبخ. خلع بابها الخشبي، وبنى مكان الباب حائطاً طلاه، فصار كانه حائط كامل متصل، وجعل للغرفة مدخلاً سرياً يدخل منه عبر موقد الحمام الأجري. وبذلك هيا غرفة من الصعب كشفها إلا من الخبير المدقق، وكان قد اشترى ورقاً خاصاً للآلة موجوداً في السوق المحلية يصلح لعدة استخدامات، وقد قال للبائع، إن له مكتباً هندسياً، ويريد شراء كميات كبيرة من الورق، لأن المكتب يستهلك كثيراً منه، وكان قبل البدء بالعمل، قد كدس كميات كبيرة من الطعام، تكفيه لأكثر من شهر، وقرر ألا يخرج من البيت مهما كان السبب، واتصل بالحاج عبد القادر، لينبته بأنه مسافر لزيارة أخته المتزوجة في دير الزور.

وبالنسبة للحاج عبد القادر، فقد ارتاح لوجود ابنه سليمان قربه، يدير له الشركة، وينظم بالتعاون مع الكادر شؤون الإنتاج، وقد أظهر سليمان كفاءة وذكاء يشهد له، كما أن الكادر الجديد بدوره، كان محل الثقة، وعمل بإخلاص وكفاءة. تكدست البضائع، وجاء دور مكتب الترويج والبيع، الذي غطى بالدعاية المتنوعة الأرجاء، فأقبل الناس على الطلب، ولأن سعر المنتج كان مدروساً، فقد انهمرت على مدير الشركة التجاري، الطلبات من الداخل ومن الأقطار المجاورة، ونفدت الكميات، فاضطر الحاج عبد القادر إلى شراء المزيد من القطن المحلوج وعادت دورة عجلة الإنتاج تنتج المزيد عندها بدأ يفكر مع ابنه في إعداد وتجهيز معمل الحلج ومعمل الزيوت، وأجريت دراسات اشترك فيها عبد الرؤوف ومكتبه، وشجعوا الفكرة، فراسل سليمان الشركة نفسها في (يورك شاير) عن طريق خبرائها الموجودين في المصنع، فأجابوه بأنهم يستطيعون إرسال آلات المعملين، وبسعر بدا للحاج عبد القادر وابنه سليمان معقولاً، وأنهم

سيرسلون الآلات مع الخبراء، من دون أن يحضر أحد من سورية إلى بريطانيا، كما أن التسديد سيكون على دفعات بعد إقلاع المعملين، ذلك أن شركة الآلات البريطانية، قد درست وضع شركة الحاج عبد القادر، فعلمت أنها شركة رابحة وذات سمعة. وبعد فترة وصلت الآلات، واشتركت نور الصباح وسليمان في تخليصها وشحنها، وكل ذلك حصل في وقت وجيز، كان في أثنائه عباس يطبع ويزور، حتى استطاع أن يزيف ما يقرب من خمسمئة مليون دولار، وكان العمل شاقاً، برغم أنه في البداية قد ظنه سهلاً، فأراد أن يأخذ استراحة ويدرس على أرض الواقع كيفية التوزيع، وينتقي ويختار الأشخاص الذين سيروجون ويستبدلون المال المزيف بنقود سورية سليمة.

أول عمل قام به، ذهابه إلى مقر شركة الحاج عبد القادر، في السبع بحرات دخل المكتب، فوجد عبد القادر وابنه سليمان، وبعد التحية جلس، وقد وجد منهما فتوراً في الاستقبال، وبعد فترة صمت مريبة وقاسية! قال سليمان:

- قلت من شهرين إنك في دير الزور عند أختك، وكان من الأجدر بك أن تتصل بنا، وتسأل عنا وعن الشركة، ولكنك لم تفعل، وهذا دليل عدم اهتمام بالشركة والشركاء.

- في الحقيقة كانت أختي مريضة بمرض عضال.

قالها عباس كاذباً، حتى لا يحشر في الزاوية أو يلام، لأنه مخطئ في

غيابه ولا يستطيع التسويغ.

قال سليمان:

- لقد أضفنا معملين إلى المعمل الأول، ونحتاج من كل شريك أن يدفع مبالغ كبيرة، وبرغم أننا بعنا بعض إنتاج الألبسة، إلا أن الكلفة كانت أكبر بكثير، ويترتب عليك في هذه الحالة أن تدفع عشرين مليون ليرة.

فوجئ عباس وارتبك، ثم فكر طويلاً ولم يجد حلاً. فكر بأن يسدد بالدولار المزيف، لكنه قال في نفسه سيكتشف سليمان ذلك في الحال، لأن هذه المبالغ ستسدد عن طريق المصرف إلى الشركة في بريطانيا، ويكون قد كشف قبل أن بورع دولاراته المزيفة، فقال بتردد:

- ليس لدي المال، وقررا أنتما وضعي في الشركة.

قال سليمان

نشتري أسهمك، وتخرج من الشركة ليحل آخر محلك، وإن كل ما تملكه الآن من أسهم ورأسمال نقدي وعيني، يساوي خمسة ملايين ليرة، ولكني سأعطيك عشرة ملايين، فهل تأخذ النقود وتتنازل عن حصتك ؟

- فكر عباس كثيراً قبل أن يجيب، وقال في نفسه:

إنني سأسافر بعد توزيع دولاراتي المزيفة واستبدالها بأصلية، فما فائدة وجودي شريكاً. لم تعد تهمني الشركة، خاصة بعد أن تغير الكادر، وسارت الإدارة الجديدة باستقامة وأمانة).

فقال:

قبلت التنازل عن أسهمي أعطني عشرة ملايين، وغداً أتنازل عنها لمن تريد.

- غداً عند المحامي، يعدل عقد الشركة وتتنازل، فتقبض مالك.

- اتفقنا ... وماذا عن نور الصباح؟ هل ستتنازل أيضاً؟

إذا لم تدفع حصتها من قيمة المعملين الجديدين. فستضطر مثلك للتنازل إلى من يدفع.

في اليوم التالي، تنازل عباس عن كل ما يملك من أسهمه في الشركة

وحل محله سليمان، الذي ما إن خلا بأبيه، قال له:

- وماذا بشأن نور الصباح وأسهمها ؟

- اترك ذلك لما بعد نيلها الدكتوراه، فقد علمت منها أنها ستناقش رسالتها الأسبوع القادم، وليس من الضروري الآن أن نشغل ذهنها بأمور المال.

لما قبض عباس ثمن أسهمه من الشركة، صار يزور بعض التجار، ممن يحبون حيازة الدولار وكنزه . ويقول :

- حول مدخراتك إلى الدولار، فالعملة المحلية ستهبط، ويحل التضخم والمعلومات صحيحة ومن مصادر عليا، فلا تذع الخبر. كانت كلمة عباس الموجهة إلى التجار الذين التقى بهم لا تذع الخبر كافية بحد ذاتها لأن ينتشر الخبر، ويعم السوق، ويذاع على أوسع نطاق.

وجد عباس عدة أشخاص كانوا يعملون سماسرة في مكاتب عقارية لا يملكونها ... يشتغلون كمساعدين، فنظم بعضهم في عصابته العتيدة دون أن يعرف أحدهم الآخر، ومن دون أن يشرح لهم الهدف النهائي، أو خطته العامة ثم استأجر بيتاً جديداً باسم أحدهم، وكان يقول لكل واحد منهم، العبارة نفسها عندي مئة ألف دولار، أريد بيعها في السوق للتجار، لأنني أحتاج العملة المحلية،

وعند الانتهاء من بيعها كلها، ستتقاضون خمسة في المئة من القيمة. فرح هؤلاء المساكين، وقد ظنوا أن الدولارات صحيحة، ولم يخطر في

بالهم أنها مزيفة، وصار عباس يدير العملية من بيته، وبدأ بعض التجار يحولون أموالهم ويشترون منه.

أما الحاج عبد القادر، فإنه قد فرح كثيراً بإخراج عباس من الشركة وإحلال ابنه سليمان محله، ففكر أن يغير محامي الشركة، الذي عينه عباس فيما مضى، وفطن إلى الأستاذة سميرة درويش لأنها بدأت تصنع لنفسها سمعة، وكسبت كثيراً من القضايا، واشتهرت محامية ناجحة، فزارها في مكتبها فاستقبلته أحسن استقبال، فقال لها :

- جنت أبارك لك مكتبك الجديد، وأهنئك باستقلالك عن أستاذك.

قدم لها هدية ثمينة تتعلق بالمكتب، فقبلت الهدية وشكرته، وأعطته بطاقتها، وفيها أرقام هواتفها، وتبادلا كثيراً من الذكريات الحلوة، كما قصت عليه نتفاً من حياتها في مقهى (الإنترنت) وتعرفها دكتور الجامعة، الذي بدوره قدمها إلى أستاذها .

قال لها :

في الحقيقة جئت لأمر آخر، غير التهنئة والمباركة.

- خير إن شاء الله !

- إنني أطلب منك أن تكوني محامية شركتنا ترافعين في كل قضاياها وتكونين المستشارة القانونية للشركة، ولقاء ذلك تتقاضين راتباً مجزياً، يعادل خمسين ألف ليرة في الشهر، ثم يزداد.

ابتسمت سميرة ابتسامة مجاملة وقالت:

- يشرفني ذلك يا حاج عبد القادر، ففي دارتك عثرت على مفتاح مستقبلي

ومشيت أول خطواتي في طريق طويلة، ولكنني اتخذت خطاً ثابتاً لحياتي المهنية، ومنهجاً وشرعة لهذا المكتب، وهو أن يكون للدفاع عن الفقراء والمظلومين والمحرومين، وأن تكون جل دعاوى المكتب عمالية، أو شرعية تتعلق بالأسرة وبإنصاف المرأة المظلومة، وبهذه الحالة فإنك لن تستفيد مني كمحامية، لأن أغلب دعاوى الشركة ضد العمال، وما إلى ذلك، فاعذرني يا حاج عبد القادر، ولكن مكتبي يسعد باستقبالك، في الوقت الذي تشاء، كصديق قديم وأب رحيم.

ودعها وانصرف، يحمل شعورين متناقضين، فهو في أعماق نفسه قد أكبر فيها نبل الهدف، وشرف المقصد، وخطها الذي رسمته في الدفاع عن المظلومين، والشعور الآخر أنها كسفته، بل رفضت عرضه، وكأنها لا تريد التعامل معه كمستغل فأخرجته من مكتبها مثلما خرجت من دارته في تلك الأيام مطرودة، ولكنها كانت في طردها له لطيفة ودبلوماسية.

وتعجب من هؤلاء الفقراء - وما يزال يعدها منهم - ومن طبقتهم الوضيعة، الذين يرفسون النعمة بعد أن تأتي إليهم على رجليها مسرعة مهرولة خمسون ألفاً كل شهر ما كانت لتحلم بها، وهي التي كانت تقضي أكثر من اثنتي عشرة ساعة في مطبخه تطبخ وتمسح وتجلي الصحون، وتغسل الألبسة الوسخة، لتتقاضى منه خمسة آلاف يمنها بكرمه، وأن هذا المبلغ أكثر مما تستحقه واحدة مثلها.
وقال في نفسه

إن نور الصباح أفضل منها، ولم أرها يوماً تصعر خدها، أو تتعالى على بجمالها أو علمها، بالعكس تماماً، فقد أملتني بحب مقبل، مثل ربيع يعقب الشتاء، هي أيام وتنال الدكتوراه لتدخل السلك الجامعي).

وفعلاً، فإن نور الصباح قد نالت الدكتوراه بامتياز، وحازت ثناء اللجنة المشرفة والفاحصة، وهذا ما أهلها حسب القانون أن تصبح حكماً في الهيئة التدريسية للجامعة، وأن يكون لها كرسيها الخاص بها، وزفت النبأ إلى الحاج عبد القادر، ففرح وكأنه الذي فاز، ولما حضرت إلى مكتبه في الشركة كاد يحضنها ويقبلها، لولا أن حضر الحاجب حاملاً صينية القهوة.

قص عليها أخبار الشركة، وخروج عباس منها، وخيرها بين البقاء شريكة أو الانسحاب. فقالت:

- أفضل الانسحاب، فقد أصبحت في الهيئة التدريسية، وحسب القانون لا يجوز الجمع بين العمل الجامعي والعمل التجاري.

- ولكنك ستبقين مستشارة الشركة، فهل هذا ممنوع في القانون.

- لا ليس ممنوعاً، ما دام ليس عملاً تجارياً، وإنما عمل علمي وفكري.

أخبرها أن نصيبها سيكون مثل نصيب عباس، أي عشرة ملايين، وسيكون راتبها من الشركة كمستشارة خمسين ألف ليرة.

في اليوم التالي، ذهبت وتنازلت السليمان عن أسهمها، فأصبحت الشركة لاثنين فقط، سليمان وأبيه، ولكل منهما النصف.

١٢

لاقا عباس صعوبات، لم يكن يتوقعها، أو تخطر على باله في تصريف دولاراته المزيفة، كانت هناك صعوبات جمة، وكلها احتاجت إلى وقت لتذليلها فعلى مدى أكثر من شهر، لم يستطع تبديل سوى خمسمئة ألف دولار، وعلى هذا المعدل، فإنه يحتاج إلى سنين ليصرف ما طبع، لأن الطبع لم

يتوقف وكلما طال الوقت كثرت المخاطر، وازدادت فرص اكتشافه، ففكر في توسيع الشبكة، واضطر إلى تجديد عشرة آخرين، ولكن الذين جندوا أخيراً كانوا أقل وثوقاً، وأصغر عمراً، مع أنهم تميزوا بنشاط وحركة دؤوبين. كانت شكوكه تؤرقه حول الذين وظفوا أخيراً، وقد تعرفهم عن طريق رجاله الأوائل، فلم يكن يثق بهم كل الثقة، ولذلك قلل من المبالغ التي بين أيديهم، فأعطى مبدئياً كل واحد عشرة آلاف، وتفاجأ أنهم وزعوها في فترة قصيرة فتشجع، وزاد المبلغ إلى خمسين ألفاً ثم رفعه إلى مئة ألف، ولكن حدث أمر أدى فيما بعد إلى مأساة فقد سرق أحد هؤلاء الأفراد، الذين وظفوا مؤخراً، مئة ألف دولار مزيف - ظنها

حقيقية - وهرب إلى لبنان، وفي أثناء عبوره البوابة، شك فيه أحد أفراد الأمن العام على الحدود، وفتش حقيبته ووجد المبلغ الكبير في حوزته، فألقي القبض عليه، ويدعى حسان الماوي، وأحيل إلى الأمن الجنائي، وجرى معه تحقيق دقيق، فاعترف بأنه قد أخذها من شخص ليبدلها له عملة سورية. ولما سألوه عن اسم هذا الشخص قال إنه لا يعرف اسمه الحقيقي، وإنما كل ما يعرفه كنيته أبو الوقواق وحاولوا معه بشتى الوسائل المعرفة بيته أو لقبه، فباؤوا بالفشل، لأن عباساً كان يلتقي هؤلاء على انفراد أولاً، أو بوساطة أحد موظفيه

السابقين، في شارع جانبي، أو مدخل بناية، ولم يكونوا ليعرفوا بيته الحقيقي وكان يطلق على نفسه تلك الكنية. فحصت إدارة الأمن الدولارات بدقة وبأجهزة حديثة، فتبين أنها مزيفة بإتقان، واعتقدت أن وراء ذلك عصابة دولية، فشددت الرقابة على الأسواق، وعلى محلات الصرافة الخاصة، وعلى محلات ظاهرها التجارة وحقيقتها المضاربة بالعملة والصرف، وقد تأخر حسان الماوي عن عباس، ولم يتصل به أو يخبره عن مكانه، فشك في الأمر وظن أنه ربما يكون قد ألقي القبض عليه، أو سرق النقود وهرب إلى جهة مجهولة، فترك عباس دمشق، وسافر إلى حلب لينقل نشاطه إليها، مشكلاً بصعوبة شبكة جديدة التصريف دولاراته المزيفة، وقد ساعده بعض التجار ممن كان يتعامل معهم بالبضائع والألبسة بذلك شكل مجموعة لا تقل عن عشرة، وكانت حصة هذا التاجر الشريك، ثلث المبالغ التي ستصرف، ولم يمكث في حلب كثيراً، حيث انتقل بعدها إلى الحسكة والقامشلي. وبعد كل عملياته وتنقلاته هذه، لم يستطع أن يبدل أكثر من مليون دولار.

وقال في نفسه:

الأجرب مدينة حماة، وبعد ذلك أحول ما جمعت إلى حسابي في لندن وأفر هارياً). لكن في حماة، ألقي القبض عليه بالجرم المشهود، وسيق إلى الأمن العام للتحقيق وقابلوه مع صبيه حسان الماوي،

الذي اعترف بأن عباساً هو الذي إعطاء النقود المزيفة، وأنه كان يكني نفسه أبا الوقواق، واضطر عباس إلى الاعتراف. اعترف بالقصة من أولها إلى آخرها، ودلهم على مكان الدولارات المزيفة في بيته وعلى مكان الآلة الطابعة، فحول إلى محكمة الأمن الاقتصادي، ومنع من السفر وبقي في السجن إلى حين انتهاء المحاكمة، وقد تبين له فيما بعد، أن معظم أفراد شبكته في دمشق قد ألقي القبض عليهم أيضاً، وأعطوا صفات معلمهم، الذي ألقى إليهم بالمال المزور ليصرفوه، فتأكد الأمن من شخصية عباس قبيل اعترافه أما الآن وقد اعترف، فما بقي عليه سوى تمثيل الجريمة، بحضور القضاة والنيابة وقد مثل الجريمة، ودلهم على المبالغ المزورة، والمبالغ الصحيحة التي استبدلت

بها، كما دلهم على الملايين العشرة، التي كان قد قبضها من الحاج عبد القادر،

لفاء تنازله عن أسهمه في الشركة.

نشرت الصحف الخبر، وقرأ الحاج عبد القادر وابنه الخبر وتعجبا! هل يمكن أن يكون إنساناً غيره، يحمل الاسم نفسه ؟! ولكن عباساً الداعور لا يوجد له شبيه، قال سليمان لأبيه:

- لا يخدعنك الناس كل إنسان كتاب مغلق، لا تعرفه إلا إذا قرأته،

وقديماً قالوا: الإنسان كالبئر العميقة الإنسان يختبئ في ثيابه، فلا تدرك ما يخفي، ولا تعرف كنه بطانته. إنك يا أبي مع احترامي لك، طيب القلب، قليل الخبرة بالناس، وكان بإمكانك توظيف عامل خبير مكانك في الدكان، ليجري عمليات البيع، ليتسنى لك ممارسة الحياة واختبارها ، وربما يكون ذنب جدي الذي منعك أن تعيش حياتك كما يعيش أقرانك ولم يدعك تكمل تعليمك الجامعي، وهي فترة مهمة للنمو الاجتماعي، والانفعالي، وللخبرات الحياتية والعاطفية.

صدقت يا سليمان، مع الأسف الآن أدرك ذلك، وسأحاول التعويض.

ارجو الا يكون قد فات الأوان.

قال الحاج عبد القادر :

عمري الآن يا بني أكثر من ستين عاماً، وقد أيقنت أنني قليل التجربة، وأحياناً أتصور نفسي مثل أهل الكهف الذين ناموا دهراً، ولما استيقظوا كان العالم من حولهم قد تغير. لقد أوليت عباساً ثقة مطلقة لا حدود لها، وظننت أنه سيكون عند حسن الظن، ولو أثبت أنه جدير بالثقة فعلاً، لربما كنت - إذا سارت الشركة كما يجب وربحت كما ينبغي - أسجل له ثلث، أو نصف أسهمها، ولكنه نكص واستعجل الربح والمنفعة، فباء بالخسران المبين، وما ذلك إلا لأنه جعل من المال إليه فهوى، وإنني الآن حزين على أولاده الثلاثة وزوجه

وعلى مصيرهم بعده.

ولم يكن الحاج عبد القادر يدري أن عباساً كان عقيماً، وأن زوجته طلقته منذ زمن.

اتصلت نور الصباح بالحاج عبد القادر قائلة:

- أأنت في المكتب يا حاج؟ حدث أمر جلل !

- خير إن شاء الله، ما الأمر ؟!

- أقرأت الصحف ؟ لقد قبضوا على عباس، وكان يدير شبكة لتزوير الدولارات، وما كنت لأظن أن يصل به الجشع والطمع إلى ما وصل إليه.

وحضرت مسرعة إلى الشركة، وجلسوا يتناقشون في أمر عباس، الذي أصبح حديث المدينة.

قال الحاج عبد القادر :

- أعرفه من كنا فتيين، أعرف أنه كان زير نساء، ولم يكن يهتم بالمال إلا من أجل أن يبذره ويصرفه على ملذاته، صحيح أنه كان يسعى إليه بشغف لكن ليس من أجل كنزه أو حباً فيه، بل من أجل صرفه على متع الحياة التي أحبها، وتعلق بها، ولقد باع متجره، وأنا الذي اشتريته منه، وعمل في الإسكان وتعرف زوجه التي أحب، ورزق منها بأولاد ثلاثة، وعندما التقيت به بعد غياب طويل، ومرور مياه كثيرة من تحت الجسر أعجبت بثقافته التي قال إنها بتشجيع من زوجته المثقفة وبأفكاره المبدعة، وأنه يحب أولاده إلى درجة فائقة.

تبسمت نور الصباح، بمرارة وحزن عميقين، وقالت:

- إن عباساً مراوغ كاذب، هل تعلم يا حاج عبد القادر أنه إنسان عقيم وأنه لا أولاد له، وأن امرأته قد طلقته عن طريق القاضي لأنه عقيم، لكنه بارع في الكتب، وبارع في إخفاء المعلومات.

قال الحاج عبد القادر :

- لماذا لم تخبريني يا نور الصباح، بهذه المعلومات من قبل، ربما كنت احتطت للأمر.

ارتبكت نور الصباح واحتارت، ثم فكرت وقالت:

لم تصلني هذه المعلومة إلا مؤخراً، وكنت أستعد يومها للتحضير لنيل الدكتوراه. وعلى كل ثمة أمور أخرى سأطلعك عليها في حينها .

أطلعيني عليها الآن يا نور الصباح

- بعد فترة سأطلعك، لأنني أظن أن الوقت لم يحن، أو أنه غير مناسب الآن.

ظن عبد القادر أن عباساً قد حاول مغازلتها، أو طلب منها علاقة، أو ما شابه ذلك، ولم يخطر بباله كل ما جرى بينهما، وهنا قال سليمان

- إننا نحمد الله ونشكره، أن عباساً قد تنازل عن أسهمه، وقبض المال وأبرأ ذمة الشركة، وإلا لكان القضاء قد حجز على الشركة، وكف أيدينا عنها، وربما عين حارساً أمنياً لإدارتها، وكل ذلك يسيء إلى سمعة الشركة، ويظن الناس أننا على شاكلته. الحمد لله أن الإنتاج زاد وبدأت المعامل تعمل بكامل طاقاتها، وإنني أفكر يا والدي، في شراء مزارع على نهر الفرات، تزرع القطن لتكون المواد الأولية من إنتاجنا أيضاً، وتكتمل الدورة الاقتصادية.

قال الحاج عبد القادر :

- فكرة ممتازة، سندرسها لتنفذ في العام القادم بإذن الله.

أما نور الصباح، فقد قالت في نفسها لو لم أسرق صك الزواج العرفي في غياب عباس من بيته، لكنت جرجرت معه إلى التحقيق وربما نالني مكروه

أو على الأقل سمعة سيئة تطيح بوظيفتي في الجامعة وأطرد منها.

اعترف عباس بكل شيء، حتى برقم حسابه السري في المصارف البريطانية، وقد أرسلت المحكمة عن طريق وزارتي العدل والخارجية، كتاباً إلى البوليس الدولي (الإنتربول) بضرورة حجز أموال عباس الموجودة في هذا الحساب لأن الحكم الذي سيصدر سيغرمه دفع أموال لا قبل له بها، ومن ثم فإن القضاء سيستولي على كل أمواله لصالح الخزينة العامة، وسيبقيه طيلة عمره في السجن، فيقضي أواخر أيامه بين المجرمين مأسوراً فاقداً أهم شيء في الحياة

- الحرية - ويكون من الأخسرين أعمالاً.

احتارت نور الصباح من اين تبدا اتخبر الحاج عبد القادر بما جرى بينها وبين عباس، كيف باعا الألبسة المهربة، كيف انتزع منه متجره بثمن بخس، وأخيراً كيف تزوجته بعقد عرفي هو أشبه بالزنا، لأنه لم يشهر وبقي طي الكتمان؟ وعبد القادر يوماً ما، سيطالبها بحب يؤدي إلى الزواج، طالما المح إليه من قبل، ولقد قبلت به مبدئياً، وطالما أملته هي بدلال وغنج وفقاً لتعاليم عباس، فهل تنكر الآن كل أفعالها السابقة، وتسكت عنها، لا سيما أن عباساً في غياهب السجن؟ أو ستبوح بكل شيء، وكل تخطيط جرى، وليكن ما سيكون وعندها سيرتاح ضميرها ويطمئن قلبها، وتؤسس حياتها على صخر؟ أو تترك عبد القادر، وقد بلغ من العمر عتياً، وتبحث عن أكاديمي مثلها، ولو كان فقيراً لكنه سيسعدها، لأنه سيحبها وتحبه ويتفاهمان، وتكون في هذه الحالة منسجمة مع نفسها ومتصالحة معها ؟ أو أن عبد القادر هو الوجه الآخر لعباس، إنهما وجهان لعملة واحدة للسوق، لكن عبد القادر، هو الوجه الإيجابي على كل حال. وإذاً ستعود إلى السوق من الحديقة الخلفية، بعد أن غادرت من الباب الرئيس معتقدة أنها لن تعود إليه أبداً.

عادت لتراجع نفسها الحائرة إن عبد القادر جاهز من فوره للزواج ربما يحبني بصدق، وأنا لا أكرهه على كل حال، كما أنني لا أحبه بالمعنى الحق للحب، وسيتحقق الكثير من هذا الزواج إذا وزنا الأمور بميزان المصلحة. وإذا تركته الآن، منتظرة فارس الأحلام، فربما أكون مثل الذي ينتظر من يأتي، ولا يأتي لا بد من التفكير ملياً في الأمر، وعلى تقليب الأمور على أوجهها كافة.

ثم قالت في نفسها :

.... أنا جميلة، وما يميزني العلم الأكاديمي الراقي، والعلم هدف نبيل نسعى إليه، ولكن عندما نمتلكه، يصبح وسيلة لهدف أسمى من أهداف الإنسان التي هي: الحب والحرية، وتحقيق المثل العليا.

في بداية حياتي، كنت أسير وفق هذه المعادلة، وقد ضحيت بالحب النبيل من أجل الواجب وأداء الرسالة، وكنت سعيدة برغم الخسارة، ولما نزلت السوق، وتخلقت بأخلاقه، وجعلت عباساً مرجعيتي، انقلبت المعادلة.

إن المال والعلم، إذا لم تقدهما الأخلاق والمثل، يصبحان من عمل الشيطان، ويقودان بالنتيجة إلى الشر، إن بعض الأفراد كبعض الدول العظمي التي تقودها مصالحها إلى سحق شعوب مظلومة، ونصرة طغاة وعناة ظالمين وإن العالم الذي يتباهى اليوم بالحضارة، والحرية و الديمقراطية) يشبه عباساً في كثير من الأوجه ماعدا أن عباساً طالته يد العدالة أخيراً، أما أولئك فلن يحاسبهم أحد في نظام دولي جائر وعاهر تسيره المصالح، ويتشدق بالدفاع عن الحرية والعدالة، ويفعل عكس ذلك تماماً).

استفاقت من سردها وتداعياتها، وقالت: يا الله كيف أوصلت مشكلتي الخاصة إلى مشكلات الأمم، ويبدو أن مشكلات الأفراد تشبه إلى حد ما مشكلات الدول، فالظلم واحد، ويبدو أن ما قبل من أن رفة جناح الفراشة في جنوب الأرض يؤثر على شمالها، وإن لم ير أثره بالعين أو حتى بأدق الموازين، ولكن ذلك يحصل بالفعل، وإن كل مخلوق على سطح الأرض له دور يؤثر في حياة الآخر، بل وفي مسيرة الحياة نفسها.

وهل تحتاج قضية، مثل قضية عبد القادر، وعلاقتها به إلى كل هذا الاستطراد من التفكير والجدل الداخلي، وهل لعباس كل هذا التأثير الذي حرفها عن مسار الأخلاق والمثل، أو أن استعدادها الداخلي المضمر، وجيناتها الوراثية هي التي تلقفت أفكاراً مثل أفكاره، واعتنقتها لأنها طالما تاقت إليها، أو اصطرعت المصلحة مع العاطفة، فكانت الغلبة للأولى، أو أن ذلك كله اجتمع وتضافر، فكان له ذلك التأثير الذي حصل لحياتها، فانزلقت واحتارت من أي الطرق تعود ؟

وسميرة التي هبت عليها العواصف من كل اتجاه، لماذا بقيت صامدة كالسنديان؟ ولماذا لم تنزلق أو تنهار ؟ برغم أنها في بعض الأيام كانت تفتقر

إلى كسرة الخبز، وتنام على الطوى، لكنها لم تنزلق إلى شكل من أشكال السوق، وقد أصبحت بعد كفاح طويل، أكاديمية ترفض المال الذي يأتيها هيئاً ليناً. وعلى طبق من ذهب، لأنه يريد أن يرهن مثلها وأخلاقياتها، فترفضه غير أسفة.

ما أبسط الحياة وما أعقدها في الوقت نفسه وكم للضمير اليقظ والإيمان العميق الصحيح من أفضال، بحيث يضبط السلوك ويبعده عن الانحراف.

وصلت بعد أسبوع من الصراع الداخلي إلى أنها ستفضي للحاج عبد القادر بكل شيء، من أصغر الأمور إلى أكبرها، من أتفهمها إلى أعظمها، فاتصلت

به قائلة:

- حاج عبد القادر، أريد أن التقي بك على انفراد الأقص لك أموراً حدثت في الماضي فأين تريد المكان؟

في مكتبي بالشركة.

- أفضل أن يكون بعيداً عن مكان العمل، ما رأيك في كافتيريا الأحباب).

أرى أن المكان غير مناسب، فهو للشبان اليافعين، وملتقى العشاق

الصغار، والمراهقين.

ليكن عندك في القصر إذاً.

تعجب عبد القادر من ذلك ولماذا في بيته؟ وليس من اللائق أن تنتقى

ذلك المكان ما دام الرباط المقدس غير معقود ولكن مادام هذا اختيارها، ولن تحرج من وجودها معه وحدهما في بيته، فليكن ذلك وذهبت به الظنون مذاهب شتى...

- ليكن في الواحدة بعد الظهر في القصر.

- مناسب جداً، اتفقنا.

في الموعد، حضرت تخطر بثوب صيفي أبيض مزين بالورد، رآها عبد القادر آية من الحسن والجمال. قال في نفسه: (ربما) بعد أسابيع، ستكون هذه الملكة سيدة القصر، ويكون هذا اللقاء بوابة العبور إلى الفردوس الذي تاقت النفس إلى ولوجه، والإقامة بين ربوعه.

كان عبد القادر قد هيأ مكان اللقاء، في زاوية من الحديقة، معدة لشرب الشاي، مفتوحة الأركان الأربعة، لكنها مسقوفة بالقرميد، والسقف مدعوم بقوائم أربع من الخشب، عرش عليها الياسمين الدمشقي الأبيض فغشاها ووصل القرميد، أما الأرض، فكانت مبلطة بالرخام الإيطالي الأبيض المتباعدة قطعه عن بعضها، وقد نما في فراغاتها العشب الأخضر، وفي الوسط طاولة من قضبان الخيزران، بسطح بلوري، وكرسيان مريحان من الخيزران أيضاً، واستقر عليهما (فراشان) من الإسفنج، بلون تداخل فيه الأبيض مع الأخضر الغامق وقد وضع الخادم إبريقاً من عصير البرتقال الطازج على الطاولة أمام عبد القادر، فور حضورها، مع قدحين، وانسحب كما أمره سيده.

استقبلها بترحاب زائد أجدر بمحب، وقال:

شرفت دارك يا دكتورة

- بل أنا التي تشرفت بك.

صب من البرتقال في القدحين قائلاً:

- لقد أمرت الخادم ألا يحضر مجلسنا، لأسمع ما تقولين، لأنني أنا أيضاً

عندي قول جميل، وبوح عظيم، سأدلي به إليك.

كان يريد أن يطلب يدها للزواج، وقد أحضر خاتمين من (السولتير) لوضعهما في إصبعيها بعد موافقتها.

- البوح العظيم ؟! أنا من سيدلي إليك بالبوح العظيم، فتماسك، يا حاج عبد القادر.

هاتي ما عندك يا حبيبتي، فاليوم يوم بوح متبادل.

- لقد غدرت بك، وخنتك وأسأت الأمانة التي حملتني إياها، كنت عاشقاً

واهماً ومخدوعاً.

تجهم وجهه، وأصابه حزن مفاجئ لم يكن يتوقعه. فأطرق يفكر، ثم تأمل، وارتبك ثم قال لها :

- وكيف كان ذلك؟

حكت له قصة القماش المهرب، الذي باعته في محله مع عباس، دون أن تبيع قطعة من أقمشته، وكل ذلك بتخطيط من عباس، ليشتري المتجر منه، وأن شراءها المتجر كان لصالح عباس، ومن البضاعة المهربة، وأنها لم ترث من أهلها مالاً، وكل ذلك كان كذباً وافتراء، وأعطته كلاماً حلواً ليظن أنها تحبه فيخفض من سعر المخزن، وكله لصالح عباس، وكل ما عملته كان بإيحاء من عباس نفسه، وبتخطيط منه، وقد دفع لها الفتات. وأخيراً، قصت عليه قصة زواجها من عباس بعقد عرفي، ولم تدع حادثة إلا قصتها ....

وأخيراً، قالت له :

- لا تؤمل نفسك بالزواج من خائنة تأمرت عليك، أنت بقلبك الطيب نمت عن ثعلبي كرمك، فأكلا عتبك.

فوجئ بما سمع، ولم يدر بما يجيب بل وضع يده على صدره، وصرخ من الألم فعرفت أن القلب لم يتحمل، وربما هاجمته جلطة، فخافت وارتبكت ونادت الخادم، وحملاه إلى غرفة في الداخل، واستدعيا الإسعاف، ونقلاه إلى المستشفى.

وضع في العناية المشددة، وحضر ابنه سليمان، وأجروا التخطيط والتحليل، وفي غمرة المأساة، لم يشعر بوجود نور الصباح أحد، حتى سليمان لم ينتبه إلى وجودها، فانسحبت مغادرة خائفة تبين بعد التحليل والتخطيط والتصوير أن جلطة في الدماغ، تعرض لها، وسببها صدمة قوية، أو حزن مفاجئ غير متوقع، وعندما استقر وضعه بعد أسبوع، تبين أن الجلطة قد شلت

ساقه اليسرى تماماً، وبعض الشلل للساق اليمنى، وأوصوا ابنه أن يبقيه في السرير، مستلقياً على ظهره، دائماً، وأن يعين له ممرضاً يلازمه طيلة الوقت وألا يزعجه أحد بقول أو فعل أو حديث، وأن يلبوا طلباته ماعدا التي منعت عنه من قهوة، أو دخان أو ما شابه، وأن يمتنع عن تناول طعام مدهن دسم وأن يداوم حالياً على تناول شوربة الخضار، ويتناول حبوباً مميعة للدم.

تحسن بعد أسبوعين فسمح له الأطباء بأن يزار، وقد جاء بعض زملائه من سوق الحميدية، وبالطبع حضر موظفو الشركة، لكنه سر كثيراً عندما زارته سميرة درويش، وقد علمت بالأمر من أختها

الموظفة في جمعية حفظ النعمة. حاول الجلوس عند حضورها، ووضعوا خلف ظهره في السرير مسنداً، وتداول مع سميرة ذكريات قديمة حصلت....

فوجئت عندما قال لها :

- أريد فنجاناً من القهوة، من يديك.

سرت ولم تحرج، لكنها سألت الممرض

هل هو ممنوع من القهوة؟

- أظن أن فنجاناً واحداً من القهوة لا يؤذيه.

غابت في المطبخ قليلاً، وعادت بفنجانين، وصارا يحتسيان القهوة، قال:

- قهوتك يا سميرة ألذ قهوة شربتها في حياتي، ومعك القهوة لها طعم آخر، لا يتوافر في غيرها، كما ترين أصبحت عاجزاً.

- لا لست عاجزاً، إن العجز هو عجز الفكر، وسوء الأخلاق، وأنت قد أصبحت الآن منتجاً، تفيد نفسك وأسرتك وبلدك، وتساعد المحتاجين، وتتعاطف معهم. إن أسرة العامل نوري الذي خصصت له راتباً، ما تزال تدعو لك بالخير.

سر بكلامها وارتفعت معنوياته، وأحس أنه في يوم ما، يمكن أن يعود سليماً كما كان، فقال:

- أتظنين يا سميرة، أنني تغيرت وحظيت باحترام الناس وقبولهم؟

- ليس في ذلك شك، فقد حولت أموالك من مال ربوي مستغل، إلى مال منتج يفيد بلدك، وهذا بحد ذاته إنجاز كبير.

- لقد أسأت إليك، يا سميرة في يوم ما، فهل تسامحينني ويصفو قلبك لي؟

- لقد سامحتك، أول يوم، بل إنني أشكرك لأنك بسلوكك زاد حماسي وإصراري على التغلب على المصاعب، وإن قلبي نحوك صاف تماماً، فأنت يومها، وبعد ذلك الموقف، كنت تسعى لتثبيت أختي ناريمان في جمعية حفظ النعمة، وقد وصلتني الأخبار.

وقبل أن تغادر، قال لها :

- زوريني على الأقل في الأسبوع مرة، فزيارتك لي لا تقدر بثمن. إنها

تشفيني أكثر من علاج الأطباء، ومن الأدوية.

وقت سميرة بذلك، وظلت تزوره حتى تزوجت من القاضي طلعت وكانت في الثالثة والأربعين، وقد علم بذلك فأمر ابنه سليمان بإرسال هدية قيمة لهما باسمه، وتمنياته لهما بالبنين والسعادة، وقد استجاب الله دعاءه فرزقت سميرة بذكر سمته عبد القادر، واختلف الرواة في سبب تسمية ابنها بذلك، فمنهم من قال: لأنها حملت في الكبر فالله القادر، ومنهم من قال: إن الله غير حياتها، وجعلها أستاذة مشهورة فهو القادر أيضاً على تغيير كل شيء، من الحضيض إلى أحسن حال. ومنهم من قال: إنها سمته عبد القادر، تيمناً باسم والد زوجها، الذي قد يكون بذاك الاسم. ومنهم من قال: لأنها مازالت تحتفظ بحب قديم تخفيه في قلبها. ولم يعرف على وجه الدقة، سبب تسمية

ابنها بذلك الاسم حتى الآن.

وأما نور الصباح، فقد صدمت مما جرى، لأنها شلت رجلاً أحبها، وكانت تسرق ماله مع عباس، وتضحك عليه ثم فاجأته بصراحة أقرب إلى الوقاحة، بما اقترفت يداها رافضة حباً ادعت يوماً أنها تبادله إياه، وذلك من أجل تمرير مخططات عباس القذرة. لقد عانت من تأنيب الضمير وعذاباته كثيراً، فقلصت من صداقاتها مع الناس، ولم يكن لها من هوايات أو مشاغل على الإطلاق فمن البيت إلى الجامعة ومن الجامعة إلى البيت، وأنفقت مالها على تعليم إخوتها، فوصلوا أعلى المراتب العلمية، كل حسب اختصاصه، وتزوجوا ورزقوا بأولاد، واستقلوا في بيوتهم، أما هي فقد بقيت في البيت القديم وحدها تعاني الوحدة، ولم تتزوج مطلقاً لأنها لم تعد تثق بالناس، ولأن الزمن قد نال من جمالها قد دبل، ومن رونقها فخمد كانت تخاف أن يغدر الناس بها كما فعل عباس فتحاشتهم واعتزلتهم، ولما أحيلت إلى التقاعد لبلوغها السن القانونية، لم تعد تخرج من البيت إلا قليلاً، وزاد في سوء حالها أن إخوتها لم يعودوا يزورونها، إلا في الأعياد، ومرات قليلة في السنة، بسبب انشغالهم بأعمالهم، مع أنها كانت تفرح بأولادهم، لأنهم يشعرونها قليلاً بعاطفة الأمومة التي افتقدتها.

نسي إخوتها ما قدمت لهم من تضحية، ومن مال، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، نسوا كل ذلك أو تناسوه، ويا للأسف لم يبق لها من الحياة إلا عذاب الضمير، ومرارة الوحدة.

عاش عبد القادر حتى بلغ من العمر عتياً، وقد استطاع بعد فترة من مرضه الذي أصابه، أن يمشي على عكازين في حديقة القصر، يراقب الزهر والفراش والنحل، أو يتتبع العصافير في تنقلها بين الأشجار، ثم يعود تعباً إلى فراشه وذكرياته.

كانت سميرة تزوره في الأعياد، وآخر مرة زارته سألته

- ماذا علمتك الحياة، يا حاج عبد القادر ؟

علمتني الحياة أن الأمور بخواتمها، وأن السعادة التي تبحث عنها خارجنا ولا نجدها في داخلنا ؛ تنتظر منا أن نكتشفها وتنعم بها، وأن السيف الذي نتوهم أنه يحمينا ، يكون أحياناً هو السيف الذي يقتلنا ....

تمت

...

عبد الغني علي ملوك

- عبد الغني على ملوك من مدينة حمص تولد ١٩٤٤.

- تخرج في الكلية الحربية برتبة ملازم عامل عام ١٩٦٨.

- حصل على إجازة في الحقوق والقانون من جامعة دمشق عام ١٩٨٧.

- تفرغ منذ عام ٢٠١٠ لكتابة الرواية والقصة، وكتب العديد من الروايات.

من رواياته

1 - أواخر الأيام.

٢ - السوسن البري.

٣ - صيد الذئاب.

1 - جسر على نهر جاف.

الطبعة الأولى / ٢٠١٨م